حـــــاتم إبراهـــــيم سلامـــــة – 2021

حكايات عاشق الكتابة

حكايات عاشق الكتابة

بقلم

حاتم إبراهيم سلامة

إهداء

إهداء لكل حر عشق القلم، وآمن أن الحرية والصدق والإنصاف، جزء لا يتجزأ من عشق هذا القلم، فاحترم كلمته، ونزه عبارته، وأعلى مداده، ولم يجعله هينًا رخيصًا ينصر به الباطل، ويخذل به الحق، ويسعى به لغرور الدنيا.

البهي الخولي/ ..

"ليكن همك الأول من قلمك، أن تنقر به على قلب ليستيقظ،
وتنفس منه في نفس لتهب وتنهض.. واذكر دومًا أنك قائد،
وأنك طبيب، واذكر دائمًا أن مهمتك الكبرى هي إحياء
الضمائر، وإثارة الهمم إلى المثل العليا"

****

مقدمة

أردت في هـذا الكتـاب أن يكـون مقصـدًا لكـل مـن أراد أن يـتعلم الكتابة، ويجد في نفسه شوقًا للقلم، والتعبير بـه عـما يجـد في أعماقـه، أردنـا عـبر صفحاته أن نقوي عزيمة الكاتـب، ونحـن نقـوي في نفسـه ووجدانـه شـعوره بجمال الكتابة وعالمها الخالد السامي.

سنقف هنا على حكايات وأسرار، من المهم أن يقف عليها كـل راغـب في الكتابـة، يشـق طريقـه في موكبهـا، وينقـر بسـنانه بـداياتها، ليسـتفيد كثـيرًا، ويتعلم كثيرًا، ويهتدي كثيرًا، ويتقن كثيرًا.

تدور بك صفحات هذا الكتـاب، حـول معـان راقيـة قويـة، يمكـن أن تجعل منك كاتبًا حاذقًا، يعرف كيف يكتب، وماذا يكتب، ومتى يكتب، وأين يكتب؟، حين يـدرك أسرارًا ومواقـف في حيـاة الكتـاب السـابقين، يـتعلم مـن أطروحاتهم وطرقهم، ويحاكيهم في أسلوبهم ونمطهـم، ليكـون ذا إنتـاج مثمـر وإنجاز مؤثر.

ليس مهما أن تـتعلم عوامـل الاحـتراف والطـرق التـي تؤهلـك لكتابـة جيدة، بقدر ما تتعلم رسالة الكاتب وأخلاقياته، وما يجب أن يكون عليـه مـن احترام الضمير والقيم والشرف والمروءة.

الكتابة عالم عظيم، والكُتَّاب من أرفع من خلفتهم البشرية، بما قدموا لها من أفكار وأطروحات وإصلاح، وهذا الكتاب يطرق أبوابهم لنتعرف على غرامهم مع القلم، ودنياهم مع المداد، وكيف بدلوا وغيروا، وكيف تأثروا وأثروا، وكيف قوموا وأصلحوا، وكيف حفظوا وحافظوا.

متعة كبيرة لنفس القراء وهواة الأدب ومحبي المعرفة، حينما يعيشون في دنيا الكُتّاب، ويصاحبون عشاق القلم، ويشاركونهم مشاعرهم وهمومهم ونوازعهم وأطوارهم وأفكارهم.

فإن شئت أن تجعله كتاب أدب فافعل مطمئنًا، وإن شئت أن تجعله معلمًا للكتابة ومرشدًا لأسرارها وفنونها فافعل مطمئنًا، ففيه كل ذلك، ويحمل بين دفتيه كل ذلك، ولن يتركك عند الخلاص منه، إلا وأنت حزين.. نعم حزين؛ لأن صفحاته قد انتهت، وستخرج بانتهائها مما استعذبته نفسك، وهامت فيه معارفك.

حاتم إبراهيم سلامة

* * * *

اكتب ما تحب

يسألنا الراغبون في الكتابة دومًا ومن يطرقون دنيا القلم، ماذا نكتب؟

وهو سؤال مهم جدًا وقد بلغ من أهميته أنه يعد الأساس الذي يبنى عليه مستقبلك في الكتابة وعالمها.

خطأ كبير أن تكون معلمًا للإنشاء أو مدربًا على فنون الكتابة، ثم تقول لمن تدربهم: اكتبوا في موضوع بعينه، أي أنك تفرض عليهم اختيارك وإرادتك وذوقك، دون مراعاة لأذواقهم وأهوائهم متخيلا أن لهم من الخيال والرؤى ما لديك.

وهو السؤال الذي ننطلق منه لنجيب على السؤال المطروح، ماذا أكتب؟ لنقول: اكتب ما تحب، نعم.. اكتب ما تحب وما يستهويه قلمك وعقلك، ويجنح إليه خيالك، اكتب في أي مجال وفي أي طريق، اكتب في القصة والرواية والخيال والخاطرة أو الشعر أو المقالة بكل أنواعها وصنوفها، اكتب ما يحلو لك، ويناشدك به خاطرك وضميرك.

ويجب أن تعلم أننا إذا كتبنا ما لا نحب، فإنه أول عائق وأكبر عقبة يمكن لها أن تصرفنا عن الكتابة بجملتها، وتنزع من قلوبنا حفاوتنا وشغفنا بها.

وهي نفس الحال لمن يقول: ماذا أقرأ؟ فيكون ذات الجواب، اقرأ ما تحب، لأننا لو فرضنا عليه لونا لا يطيقه من القراءة لملها وهجرها، وأعرض عن ندائها، ونحن نريد أن نؤسس للكتابة مكانة قوية في قلوب المبتدئين، حتى يدمنوها ويألفوها ولا يستغنوا عنها، فإذا ما اشتد فيها عودهم، يمكن هنا أن نفرض عليهم، أو أن نطلب منهم أمورًا أخرى تتناولها أقلامهم.

كما يمكن لمعلم الإنشاء إذا كان من الضروري أن يملي على طلابه ومتدربيه موضوعًا بعينه، أن يعرض لموضوعات تتناسب مع عقولهم وأعمارهم وأهوائهم وأرواحهم، أي مما يعلم أن نفوسهم تميل إليها وترتاح لها، وتهواها قلوبهم، وتألف الكتابة فيها، وهي خطوة لا تخرج كذلك عن كتابة ما يحبه الراغب المبتدئ في الكتابة، حتى يمسك أولا بتلابيب الكتابة، ويتذوق حلاوة القلم والتعبير به، ونبني بينه وبينها، جسورًا قوية لا يمكن بعد ذلك أن تضرها عاصفه أو تعوقها عقبة.

وهنا يعرض لنا شيخ من شيوخ الكتابة وفقهائها الكبار، نفس الرأي وهو الأديب الشيخ علي الطنطاوي فيقول: " إن الطالب قد لا يميل إلى الموضوع الذي يفرضه عليه المدرس ولا يتصوره، أو لا يهيج من نفسه عاطفة أو ذكرى، فلا يحسن الكتابة فيه، وقد لقيت أنا البلاء الأزرق من هذا الأمر، وكنت آخذ أبدًا شر الدرجات في الإنشاء، برغم أنني كنت خيرًا من رفاقي

في الإنشاء وأقوى، ولا أذكر كم من عشرات المرات سألنا المدرسون أن نكتب (في وصف روضة) وأي روضة هي؟

هي التي خصباؤها ياقوت، وماؤها ذوب اللجين، وفيها البلابل وما لست أدرى ماذا؟ فإذا كانت روضة ليس فيها حصباء، وكان فيها حمام أو عصافير، كانت الوظيفة سيئة في رأي المدرس، ولا أذكر كم سألونا: ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟ حتى مللت المستقبل وكرهت الرياض، وودت لو أني هجرت الكتابة فلم أخط فيها حرفا."[1]

ثم طرح الطنطاوي العلاج الناجع في هذا الأمر فقال: "على المعلم والمدرب أن يسألهم أي الطلاب في موضوع يستوحونه من هذه القطعة، على أن يدع لهم الخيار في أن يكتبوا غيره إذا شاءوا، ولهذه الحرية في اختيار الموضوعات فائدة عظيمة جدًا، لأنها تفسح للطلاب سبيل الابتكار والتجديد، معلوم أن حسن اختيار الموضوع، أهم بكثير من الكتابة فيه."

ويبدو أن القدر أراد للحرية أن تكون دومًا نواة ونبعًا لكل نجاح وتفوق في الحياة، حتى في الكتابة، تأتي الحرية لتكون نواتها التي منها ينطلق الكاتب، والتي لو فقدت لفقدها وكرهها وما عاد يطيقها،

---

١ – من كتاب فكر ومباحث للشيخ الطنطاوي

بل تجتمع الحرية والحب معًا ليشكلا الحلم المنشود في ميلاد كاتب قوي ذو قلم رنان، بل أوغلت النصيحة حدها في الحب، حينما ننصح الكاتب أن يقرأ لكاتب يحبه، حتى يستلهم منه معانيه ومفرداته ويقتبس بعضا من أسلوبه وطريقته في الكتابة، والتي طبعًا لا تلغي ذاتك أو تنفي ذوقك، وإنما تساعدك في إدراك غور هذا الفن في التعبير، فالقراءة لمن تحب من الكتَّاب، يقطع مسافات طويلة من تعليمك وتدريبك وتلقينك، ومد عقلك الباطن بالوقود الذي يؤهله للمسير في دنيا القلم.

انظر لهذا المقطع وهذه الإشارة التي عبر بها صاحب المنار[1] في قوله:

" والحق أن الروح الذي نفخته العروة الوثقى في نفسي، كان له أقوى تأثير في أسلوب كتابتي في موضوعات العروة وغيرها.."

نعم إنه نفخ الروح واتقاد الحماس، الذي لا يتوفر ولا يتأتى إلا من قراءة شيء تحبه، وتهيم به نفسك، ويستجيب له هواك وخيالك، ليكون ملهمًا قويًا لقلمك في الكتابة والتعبير.

المفكر الكبير الراحل عبد الوهاب المسيري، يحكي لنا مأساة (عوف) في رحلته الفكرية، إن عوفًا هذا هو معلمه في المرحلة الثانوية، والذي لم يتركه أبدًا أن يكتب ما يحب، حتى اشتكى منه ومنحه درجة الصفر.

---

١ - الإمام محمد رشيد رضا

يقول المسيري: "أذكر أن أستاذ اللغة العربية الأستاذ عوف، طلب مني وأنا في السنة الثانية من المرحلة الثانوية، أن أكتب موضوع إنشاء عن (حديقة منزلكم) والإنشاء لم تكن مادة نتعلم فيها كيف نرتب أفكارنا ونحولها إلى كلمات مكتوبة وبنية متماسكة، وإنما كانت قوالب لفظية جاهزة نحفظها عن ظهر قلب، ثم نرصها رصًا حين تحين المناسبة، ومن هذه القوالب التي ما زلت أذكرها مجموعة من الكلمات تعبر عن موقفي من الطبيعة، فهي تخلب اللب، وتشرح الصدر وتملأ القلب روعة وجلالا، وبالطبع كان هناك الأيات القرآنية، والأبيات الشعرية والأمثلة التي نرصع بها ما نكتب أو ما ننشيء، ضقت ذرعًا بكل هذا، فكتبت موضوع إنشاء أقول فيه ما أحس به، بدأ الموضوع بتأكيد أن منازل الفقراء ليس لها حديقة، وأن أطفالهم لا يعرفون معنى الحدائق، ويعيشون بين أكوام القمامة، وهاجمت الظلم الاجتماعي بشكل عام، فأعطاني الأستاذ عوف صفرًا على هذا الموضوع، وأبلغ أهلي عن كتابتي الشيوعية، وبطبيعة الحال لم يكن لها أية علاقة بالشيوعية التي لم أكن أعرف عنها شيئا آنذاك أو أي مذهب سياسي، وإنما كانت تعبيرًا عن رفض فتى للظلم الواقع على أعضاء المجتمع."

وهذا غباء كبير من هذا المعلم، الذي لم يترك الحرية لقلم المسيري ليعبر عما يجيش في صدره، ولعل هذا التصرف الغشيم، كان كفيلا أن يحرم

دنيا البحث كاتبًا ومفكرًا كبيرًا كالمسيري، حين جلب له الأذى نتيجة كتابته لهذا الموضوع الإنشاني، والموقف العظيم هنا والذي يستحق الإشادة هو، كيف تخطى المسيري هذه الكبوة التي كان يمكن أن تحدث في نفسه عقدة، واستطاع أن يكون كاتبا وله مؤلفاته ومقالاته.

* * * *

لكي تكون كاتبًا

ربما تسألني دومًا عن الطريق التي تحترف بها الكتابة، وعن طريقها تبلغ في عالمها غايتك التي تريد.

يسأل الراغبون أسئلة كثيرة: كيف يحسّنون الأسلوب؟

من أين ينتقون العبارات؟

كيف تكون طرق التدريب ومراحله؟

ومن العجيب أن كثيرًا من المحترفين يجيبونهم بجوابات تنطلق من وحي الأسئلة المطروحة، وقد يدخلون بهم في متاهات غريبة وعجيبة، مما يخص شأن الكتابة وتطوير الأسلوب.

بينما هناك فريق يرى رأيًا مهمًا وأساسيًا وأصيلا لابد منه للكاتب، لكي ينطلق وينال كل ما يريد من وسائل التطوير، وذلك لا يكون ولا يتحقق إلا عن طريق القراءة.

لقد كان الكتاب قديمًا يقرؤون ثم يكتبون، يقرؤون ثم يكتشفون أنهم يستطيعون الكتابة، أما اليوم، فقد تبدل المسار وانحرف الاتجاه، فإن أكثر الكتاب كتبوا دون أن يقرؤوا، ومن هنا تجد كتابتهم هشة ضعيفة تفتقر للكثير من الجودة والنضج، لأنها تفتقر ابتداء لهذا الأساس المتين الذي تبنى عليه عملية الكتابة.

القراءة هي الوقود الذي يمد الكاتب بالحركة والحياة، هي للكاتب كالطعام والشراب بالنسبة للإنسان، وبدونها لا يستطيع العيش حيث يضمر ويموت.

القراءة لا تمدك ككاتب بالأفكار فقط، وإنما تخلق في وجدانك الذوق المطلوب في عملية الكتابة، فتستطيع أن تتذوق كل ما كُتب أمامك أو كتبته يداك، تُصبح لديك القدرة القوية على تمييز الصحيح من السقيم، والجيد من الرديء، والقوي من الضعيف، من شتى الأساليب التي تعرض عليك مما يكتبه الكاتبون.

ومن هنا عرفنا غرض القائل:

* من أراد أن يكون كاتبًا فعليه أن يكون قارئًا.

* الكاتب الجيد يصنعه قارئ جيد وناقد جيد.

* الكتابة هي أن تشرب نهرًا لتملأ كوبًا.

وكلما كنت ماهرًا حاذقًا في القراءة، كلما كنت كذلك بنفس المهارة والحذق في الكتابة.

ومن ثم كان عجبنا الكبير أمام ما نؤمن به من هذه المعارف والقواعد، من أناس يكتبون دون أن يقرؤوا، وكأنهم نبت شيطاني لا أصل

له، لكنهم في الحقيقة مهما كتبوا، أو خيل لهم أنهم يكتبون، فإنهم كغثاء السيل لا قيمة لما يكتبونه، فلا صنعة فيه ولا حرفية، ولا إتقان ينال من إعجاب الجماهير ويجترهم للتصفيق لهم.

القراءة بالنسبة للكاتب هي بيت الخبرة الذي يتعلم منه، ويرى من خلاله الصور والأشكال والأساليب التي يكتب بها الكتاب، حتى يتكون له الأسلوب الخاص به، والذي يستقي جماله من رحيق هذا البستان المليء بهذه الزهور.

ومن المعروف والمتفق عليه أنك ككاتب، كلما خدمت القراءة فإن ذات الخدمة تنعكس تلقائيًا على الكتابة، وبلا كلفة أو مجهود.

ومن ثم عليك أن تقرأ في كل الألوان، ومن كل العصور، القديم والحديث، الأدبي والعلمي، الخيال والواقع، الديني والسياسي، العربي والأجنبي، حتى تتحقق الغاية الكبرى أن تكون كاتبًا مثقفًا، له علم بكل المعارف وأغلب العلوم، فليس كل الكتاب مثقفين، ومن هنا يتضح الفرق بين كاتب وكاتب.. فليس كل من أمسك بالقلم، يقدر على كتابة ما يخطه أهل الثقافة والمعرفة.

ربما تكون قارئًا في لون واحد من ألوان الثقافة والمعرفة، وهذا يعني أنك لن تكون كاتبًا إلا في لون واحد من ألوان الكتابة، وهو لون الميدان الذي تقرأ فيه.

كما أن الكتابة العميقة في موضوع من الموضوعات، تستند إلى قراءة عميقة، تسبر غور أبعاده، حتى يكون لك تحليل وتقييم صائب سليم.

ولعلك لا يمكن لعقلك أو خيالك أن يدرك الرباط القوي بين القراءة والكتابة، حينما تلهج بالشكوى الدائمة، أنك لا تستطيع أن تحفظ ما تقرأ، ولا تدرك كيفية استثماره واستخدامه والإفادة منه في الكتابة، وأن كل ما تعرفت عليه وقرأته من صور البيان وجماليات اللغة والأدب، قد طار من ذهنك ولم يعد له ذكرى في عقلك، وهو تصور غير صحيح وليس مبنيًا على شيء من الصواب، ولك أن تعرف أن كل كلمة، وكل لفظ قرأته بعينيك، فإنه يختزن في ذهنك ويستقر في عقلك الباطن حتى يؤذن له الخروج يومًا ما، وبصورة طبيعة غير معد لها أو مرتب لظهورها، مع مرور الأيام وممارسة الكتابة.

وكلما قرأت أكثر، تكوَّن لديك مخزون أكثر، يُسهم في تطوير أسلوبك وقدراتك الكتابية، فتشعر باختلاف كبير كلما مرت فترة وسبقت أختها.

كذلك تجد هذا الأمر وهذه الصورة عند كثير من الكتاب، حينما تقرأ له في زمن مبكر، ثم بعد فترة زمنية تعيد القراءة له فتجد تغيرًا كبيرًا وملحوظًا في الأسلوب، ولعل هذا لا يرجع إلى الاستواء أو النضج، بقدر ما يرجع لكثرة القراءة وإسهامها في هذا التطوير الملموس.

وكما ذكر أحدهم: " إن عملية الكتابة نفسها هي لغز، ليس لأن مصدرها مجهول ولكن لأن ملهمها الحقيقي مجهول لا نعرفه، فهي تأتي من مصدر علوي غير مُدرك، ولعلها تكون الثلة الباقية من لغة الإحساس، ومن هنا قالوا بأن ما يخرج من القلب يصل للقلب، وهذا أيضًا يفسر؛ لماذا كثير من الكتابات رغم قوتها لا نتأثر بها أو ننفعل معها، بينما كتابات أخرى مهما بدت بسيطة تخترق وجداننا وتُحرك مشاعرنا."

بعض الكتاب المبتدئين يريد ويطمح أن يكون كاتبًا من لا شيء، هكذا بالأماني والهوى دون أن يتعب ويجتهد ويفكر ويتأمل ويدرس ويحفظ أو يتعب نفسه في شيء. يعتقد أنه بالموهبة في نفسه وبالحنين الذي يجده في أعماقها للقلم، قد استكمل أدواته وغاياته، وما عليه فقط إلا أن يكتب أو ينتظر الأفكار التي تهطل عليه من السماء كي يكتبها، فإذا كتب كان هناك نقص كبير، وتبدى العوار بين سطور هذا القلم الذي لم يتعلم ولم يتدرب ولم يكلف نفسه عناء المشقة في الدرس والمعرفة.

إن أولى الخطوات التي تبني بها قلمك، وتسلح بها فكرك، وتُنعش بها وجدانك، أن تهيم في أعماق اللغة، وتتعايش مع جمالها، وتنسم مع سحرها من خلال القرآن الكريم وكتب التراث الأدبية، التي تلهمك ثروة في الفكر والمعرفة والأدب، وتجعل منك كاتبًا مهولًا غني العبارة، ثري اللغة، غزير البلاغة، وافر المعرفة مبهر الثقافة.

ثم لا شك تعرج على كتابات الأدب في العصر الحديث، فتقرأ لطه حسين والرافعي والعقاد والزيات وغيرهم، من هؤلاء الكبار الذين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من هذه المراتب العليا، إلا عن طريق ما ذكرته آنفا من الولوج في كتب التراث، ينهلون منها البلاغة والعلم والأدب، كما لم يوجد فيهم من لم يعترف للقرآن وأثره عليه في رقي لغته وارتفاع بيانه، فكلهم يدينون للقرآن الكريم بالفضل الكبير، والأثر الغائر، يجدون شكيمته في أقلامهم، حتى وإن كانت أفكارهم عنه شاردة ولغايته منكرة.

حتى أنا فلا أعد نفسي مثل هؤلاء الكبار، فأين وهم وأين أنا؟ بل هم مني كمثل النجوم في السماء تواجه الحصى في الأرض، لكني أعد هذا الحراك الذي يشعل قلمي، والقدرة على رسم التناغم بين العبارات،إنما يرجع الفضل فيه لأثر القرآن ودراسة الأدب القديم في صروح المعاهد الأزهرية.

انظر هنا فيما قرأت لك، وتأمل كيف نما هذا العظيم في دنيا الأدب والنقد، إنه الناقد الأدبي الكبير دكتور محمد مندور، لنتطلع إلى بدايات نشأته وانطلاقة تكوينه الأدبي.

حينما كان مندور في مدرسة طنطا الثانوية، رزقه الله وبعض زملائه معلمين كرامًا، أعطوهم دروسًا خاصة في الأدب العربي، ولكن على أي شيء كانت تقوم هذه الدروس؟ لقد خصصوها لقراءة صفحات من أمهات

الأدب العربي القديم، مثل العقد الفريد والكامل، ومنذ ذلك الحين تأثر مندور بالأدب وأحبه، وأدرك أن هذه الكتب هي مسار تهذيبه لنفسه ولغته، وكأن مندور قد عرف الطريق، ووجد الغاية وشعر باللذة، فصار يدخر كل ما يستطيع من مال، ليشتري أمهات الكتب العربية القديمة، وبدأ بها قرأه على غلاف الكامل للمبرد، وهو قول أحد شيوخ الأدب أن أمهاته أربع: الأغاني للأصفهاني، والكامل للمبرد، والأمالي للقالي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، فاقتناها مندور جميعًا وهو في أواخر المرحلة الثانوية.

وهكذا كانت البداية، وكانت النشأة، وكان الهوى الذي خرج أديبًا من العيار الثقيل، ترك بصماته في دنيا الأدب حينما صار من الرواد، كما ترك لنا آثاره القوية التي تدل كل كاتب وأديب على طريقه التي يسلكها لكي يحقق هذه الغاية.

* * * *

عشاق القلم

الكتابة نعمة وسعادة ونشوة غامرة تهيم بها النفس، ولكني أتساءل: هل يشعر بهذا الشعور أولئك الكتاب، الذين لم تتوفر لهم العافية والقوة ليمسكوا بالقلم؟ لقد كان طه حسين أديبًا كبيرًا وذا إنتاج وافر، وكان يطرح أفكاره على الورق ويمليها على غيره، لكني أجزم: أنه افتقد لذة الإمساك بالقلم، نظرًا لظروفه وعجز عينيه.

العقاد كان من أولئك الذين يدمنون لذة الإمساك بالقلم، ولما كبر وذهب مرة ليكتب، وجد يده ترتعش، فقال: لقد عشت طول حياتي وأنا أخشى من هذه اللحظة. وحزن حزنًا كثيفًا، لأن يديه لم تعد تقوى على الإمساك بالقلم، ثم طواه الحزن ومات بعدها بأيام يسيرة.

إن رؤية القلم في يد الكاتب وهو يجر ويسحب الأفكار من عقله وذهنه ليعرضها ويفرشها على الورق، عملية ديناميكية مذهلة.

وهناك من يرى كتابة الكاتب لأفكاره مباشرة على الحاسب الآلي، تفقده لذة الاستمتاع بالكتابة على الورق والإمساك بالقلم، والأمر يتخطى مسألة اللذة والعشق، لأنهم يقولون ما ذكرناه، بأن القلم لديه القدرة على جر الأفكار واستلهامها ومن ثم صياغتها، ولو ذهب بعضهم للكتابة على الحاسب، لتوقف في عقله سيل الأفكار.

لكن آخرين يجزمون أن كل هذه أوهام نفسية، وأن المرء حسب ما يعود عليه نفسه ويدربها، فلو تدرب أن يكتب على الحاسب مباشرة، لزهد فيما يسمى بمتعة الإمساك بالقلم، ولو تعود طرح أفكاره وإملائها على غيره، لألف ذلك وما وجد عائقا في استرسال أفكاره.

يشيعون عن الأدباء أنهم عشاق القلم، والحق أن هذا إجحاف كبير لصف العلماء، الذين كانوا أغزر إنتاجا وتصنيفًا وصحبةً للقلم والمحابر، ولم يكن هذا في الزمن القديم وحده، وإنما كذلك في الزمن الحديث أيضًا، إن العلماء لم يكونوا أدباء من هذا الصنف الذي نراه دومًا يسطر معبرًا عن خواطره وخوالج نفسه، ويعكف على أحاسيسه يجسدها ويتمثلها للقارئين، فيصف عشقه للقلم، وهيامه بالكتابة، ويصورها بأنها متعة الروح وشغف القلب.

لأجل هذا كله، أشيع عنهم وانتسب لهم هذا الولع الكبير بالعملية الكتابية.

لكننا نجد في ميدان العلم والعلماء، من كان أشد ارتباطًا بالقلم والغرام بالكتابة، لكنه عزف عن التعبير عن هذا العشق، لأن عشقه لرسالته ودعوته وعلمه، جعل من الكتابة والقلم وسيلة لا غاية، وسيلة لنشر علمه ورأيه وأفكاره، وخدمة رسالته التي يجد حُبها في قلبه أعظم من أي حب،

وأجدى من أي عشق. ومن هنا لم يحفل أو يتغنَ بمسألة الكتابة بالصورة المطلوبة، كما يفعل كثير من الأدباء أو الكتاب الذي يعيشون ولا هدف لهم إلا متعة الإبداع والخيال.

وفي الوقت الذي ننسب فيه عشق الأقلام لكثير من أدباء الجيل الماضي، من العمالقة الكبار كالعقاد والزيات والرافعي وغيرهم، يأتي هذا العالم، الذي ما فارق القلم حتى لحظته الأخيرة، وقد فاق في الكتابة به، أضعاف ما كتب كل هؤلاء الكتاب والأدباء، فهذا أمير البيان شكيب أرسلان، يحدثنا عن القلم والكتابة في حياة الإمام (محمد رشيد رضا) صاحب المنار فيقول:

"لم أرَ في عصرنا هذا من هو أصبر على الكتابة، وأجلد على الشغل، وأسيل قلما وأسرع خاطرًا من الشيخ رشيد، فلو وزعنا ما كتبه بقلمه وبخط بنانه في حياته، على خمسين كاتبًا لأصاب كلا منهم قسطا يجدر بأن يجعله في صف المؤلفين العاملين.

وهو معروف بأنه لا يضيع دقيقة واحدة من وقته، وأنه يتلقى أكثر من ألفي مكتوب في دور السنة، فيجيب عليها كلها، ويكتب زيادة عليها مائتين إلى مائتين وخمسين مقالة في دور السنة، وينشر من التآليف بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفًا، فلست إذا لأغبط أحدًا من الخلق على شأو بعيد

في الجد، ولا على محصول غزير من ثمرات الأقلام، ولكني لا أدعي مباراة السيد رشيد في هذا الشأو، فقد كان يكتب جميع ما يكتبه بخط أنامله، ولم أعلم أنه استعمل كاتبًا يملي عليه إلا فيما ندر.

والحال أنني أنا أصغر منه ببضع سنوات، وأني منذ عشر سنوات تقريبًا أستعين بكتاب أملي عليهم سواء الرسائل الإخوانية أو المقالات السياسية أو العلمية، ومما أدهشني أن كتابه الأخير إلي، كان قبل وفاته بأيام قلائل، وكان يشكو إلي فيه المرض، وهو أيضا بخطه."

يحز في نفسي كثيرًا، ويحزنني وأشعر معه بالخسارة الكبيرة، حينما أرى أديبا ألمعيًا، يكتب بأسلوب عظيم، لا يرقى إليه ولا يدانيه أولئك الذين جعل الناس منهم كهنة الثقافة، وأرباب الأدب وأئمة البيان، كطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم.

أحزن كثيرًا وأنا أرى هذا الملهم قد صرفه فكره ومعتقده عن الكتابة في الأدب، وأقول لنفسي: ما أبرعه وأروعه لو امتهن الأدب وكتب فيه! لا شك أنه سيكون وقتها ذا شأن عظيم، وأنه سيحوز مكانه ضخمة فائقة، يصغر معها وأمامها رموزنا من الأدباء المشاهير. يحدث هذا الخاطر كثيرًا وأنا أقرأ للشيخ الغزالي، وأتأمل روعة بيانه العذب، فأقول: يتباهون بأسلوب توفيق الحكيم وطه حسين والعقاد، وما هؤلاء جميعا أمام الشيخ الغزالي لو أنه كتب في واديهم ونزل ساحتهم مهنتهم؟

ولكن الشيخ سخر أدبه وبيانه في خدمة دينه وعقيدته، وكان هذا الأدب هو الروح التي سكبها على فكره، ليجعل من كتبه وقودا للنفس، تستقبل به الإيمان وتصقل بسطوره حماستها لهذا الدين.

كذلك قال واحد من أدباء التنوير، وهو يتحدث عن سيد قطب، فذكر أن التيار الديني قد أساء للأدب إساءة كبرى، حينما صرفه عن الكتابة في الأدب، ليهتم فيما اهتم من شؤون الفكر، ولكن يبدو أن القائل من هؤلاء الذين لا يقرؤون في دينهم أو يهتمون بقرآنهم، ألا يعلم أن سيد قد فسر القرآن بأسلوب أدبي فريد؟! لا يقوى عليه الحكيم أو طه حسين أو يأتي مثله العقاد في شموخه؟

نعم كانت ملامح الساحة الأدبية في مصر ستتغير كثيرًا، لو كتب هؤلاء في أدب القصة والرؤية، لكنهم غلبت عليهم قضايا الأمة، وأهداف الرسالة، فنذروا لها أقلامهم ومهجهم.

منذ وقت قريب كنت أقرأ كتاب هذه هي الصوفية، للشيخ عبد الرحمن الوكيل، وبعيدًا عن موضوع الكتابة، ورده لضلالات الصوفية المنحرفة، إلا أن أسلوب الرجل قد بهرني، وحِرت في هذه الألمعية الفائقة في أسلوبه المُعجز، الذي يفوق في قوته ما عرفنا من ألوان الأدباء، وصرت مرة أخرى أسائل نفسي ذات السؤال: ماذا لو كتب هذا اللوذعي في الأدب؟

للتأليف عشق ومزاج لا يطعمه أو يستلذ به إلا عشاق الكتابة.

لكن هناك أقوام لا يعشقون القلم لذاته، ولا يهيمون بالكتابة للذتها، وإنما أحبوها لأنها الوسيلة إلى غاية كبرى، يسعون لتحقيقها ودعمها وتعزيزها في حياة الناس، فهؤلاء العلماء العظام الذين كتبوا مؤلفاتهم في الدين والشريعة، لم يكتبوها عشقًا للقلم، وإنما رغبة في الجنة التي وعد الرحمن عباده الصالحين.

قرأت أن أبا حنيفة كان يُملي مسائل الفقه وهو في فراش الموت، فلما لاموه في ذلك رفقًا بنفسه ومرضه، قال: أكره أن تمر لحظة دون أن أنفع بها المسلمين، حتى في لحظات المرض يسجل اجتهاده وفكره وفتاويه! وإذا كنا تحدثنا كثيرًا وأشدنا بعظمة هؤلاء، الذين ألفوا في السجن أعظم المؤلفات التي أنارت حياة المسلمين، فإننا نقرر اليوم أن الذين كتبوا وألفوا في مرضهم، لا يقلون عنهم شأنًا ورفعة ومكانة.

رحم الله الداعية المجاهد د. مصطفى السباعي، فقد أصيب بالشلل الجانبي، وعانى من العجز ثماني سنوات متواصلة، لم يفتر فيها عن ذكر الله وعبادته، وخوض ميدان التأليف والجهاد بالقلم، حتى يكون صنيعه في عجزه، شهادة له أمام الله تعالى وجهادًا عظيمًا يحاول به أن يقدم شيئًا لدينه الذي عاش له ووهب كل حياته من أجله مجاهدًا ومحاضرًا ومعلمًا وداعيًا ومرشدا وناصحا..

استطاع السباعي في أنين مرضه أن يؤلف ثلاثة كتب مهمة وقوية ومؤثرة، أضيفت إلى عشرات ما كتب من الأسفار العظيمة الهادفة النافعة، فكتب (اشتراكية الإسلام) و(هكذا علمتني الحياة) و(المرأة بين الفقه والقانون) وظل على هذه الحال حتى أسلمت روحه لبارئها عام ١٩٦٤م

رحم الله الدكتور السباعي وجزاه الله خيرًا عن جهاده العظيم.

لما تخطى مولانا الدكتور محمود محمد عمارة سن السبعين، بدأ يستشعر قرب الموت، وفي أدراجه ومكتبته أوراقًا كثيفة، وتأملات وأفكارًا غزارًا، كان قد كتبها من أزمان بعيدة، فخشي لو داهمه الموت أن تضيع تلك الفتوحات سدى، ولا تجد من يعرضها على الناس، فبدأ في حركة نشيطة وهمة جسورة، يخرج منها المؤلفات العديدة في همة شاب في الثلاثين، لا شيخ فوق السبعين من عمره، مُثقل بكثير من الأمراض المزعجة، التي تتطلب الراحة والرعاية والعناية، ورأيناه يخرج في السنة الواحدة أكثر من أربعة كتب، حتى تخطت مؤلفاته الأربعين كتابًا في الدعوة والتفسير والثقافة الإسلامية.. كما نال الشرف العظيم ليضع بصماته في تفسير القرآن الكريم كاملا، وكان يذهب للقرى والنجوع ويغشى الحفلات والمنتديات والندوات والجامعات والإذاعة والتلفزيون، يخطب ويحاضر ويعلم الناس، حتى أصيب بمرض أقعده في البيت، وأضعف حركته وانتباهه، ولكن بعد أن استراحت نفسه أن أدت واجبها نحو دينها وربها ورسالتها.

* * * *

الكتابة تعب وكفاح

يشعر المبتدئ في الكتابة دومًا أنه في حاجة لمن يشد من عزمه، ويساند ظهره، ويحفزه ويقويه ويقول له: كلمة حلوة متدفقة بالأمل والتشجيع والاستحسان لما كتب، وقد كنت في بداية حياتي مع القلم، أعرض بعض المقالات دون المستوى المطلوب على بعض الأشخاص، والحق أقول: إنني اليوم أشفق عليهم كثيرًا حينما كنت أضعهم في هذا الإحراج البالغ، بين ما يرونه من ذوق ضعيف، وصياغة هشة، وبين شاب متشبث بالقلم عاشق له، يريد أن يدخل دنياه ويكون من رواده، لقد كانوا في حيرة من أمرهم، هل يخبرونه بالحقيقة أم يحفزونه، هل ينصحونه أن يقوي نفسه في بعض دروب الكتابة، أم يبتعدون عن ذلك، حتى لا يصاب بيأس يقضي على حبه الناشئ؟

كثيرون يعرضون علي أعمالهم وكتاباتهم، فلا أنظر ولا أركز بصري على جمال الموضوع أو رداءته، علو الفكرة أم خفتها، وإنما أنظر لشيء آخر حتى أستطيع تقييمه ككاتب، فالفكرة ليست هي العامل الذي نقيم به الكتاب ونحكم من خلالها عليهم، وإنما بثقة الحاذق الخبير، أنظر إلى شيء واحد أستطيع أن أقيم منه العمل بسرعة وسهولة، وهو قدرة الكاتب على صياغة العبارة، وتركيب الجملة، ومهارته في إيجاد الحس الموسيقي بين الفقرات وصناعته، فإن توفرت لديه هذه المقومات، فهو كاتب ينتظر منه أن

يكـون ذا شـأن، ويرتقـب لقلمـه الصـعود والتفـوق، أمـا إن كـان متعثـرًا في التراكيـب، مشـوش في الجمـع بـين الألفـاظ، مشـتت الوحـدة في الموضـوع، فأعرف أن هذا الكاتب ليس بسيئ، ولكنه يحتاج لجهد قوي في فن الكتابة حتى يبلغ مأربه.

أحيانًا يقع الكاتب المبتدئ في حظ عثر، حينما يقابل أناسًا لا يعرفون إلا النقد، والنقد الهدام بالتحديد، بل يتذوقون ويستعسلون مشاعرهم وهم يهدمون ويحطمون من أمامهم، فلا يؤمنون بتشجيع ولا يدركون أثره في تحويل التراب إلى تبر، وهنا تكون النهاية مبكرة، قبل أن يتم الميلاد وجوده، وتنتهي الفكرة التي كان مقدرًا لها أن توجد كاتبًا قيمًا لقلمه أثر وقيمة في مجتمعه.

ومن عجب أنك لو قلبت في حياة الكتاب الكبار، لوجدت أن بعضهم أحب الكتابة بالمحاكاة والتقليد، لكن أكثرهم وغالبيتهم لم يواصل وينجح فيها، إلا بالتحفيز من معلم أو والد أو قريب أو صديق.

وعلى هذا يجب أن نؤمن بشيء مهم جدًا، وهو أن من جاءك يعرض عليك ما كتبه، فإنه يحب القلم ويعشق الكتابة، ويجد في دخيلة نفسه رغبة في التعبير، ومن هنا فقد قطع أكثر من ٥٠٪ من بداية الطريق، ولم يبق إلا شيء واحد هو الجد والاجتهاد والعمل على استكمال الأدوات المطلوبة.

وهناك من الكتاب والأدباء من ينصح بالبعد عن أخذ رأي الناس والاعتماد على انطباعهم، لأنهم بهذا يخسرون كثيرًا من مواهبهم، وينحطون عن المنزلة التي وضعهم الله تعالى فيها، يوم جعلهم كتابًا واختارهم لتبليغ رسالتهم للقرون الآتية، فلا يجب للكتاب أن يعتادوا هذه العادة، أو يبالوا بأذواق الناس إذا خالفت أذواقهم، ولكن يمكن الاستماع إلى نقدهم إذا كان بناء، ويستند إلى أساس علمي دقيق.. أما إذا استند إلى الذوق وحده فلا.. ولو كان ذوق أستاذ حكيم بليغ.

بعض الكتاب المبتدئين يأتيني بين الحين والحين بمقالة دعاه إليها خياله، والحق أن هؤلاء الذين لا يلبون إلا نداء خيالهم فقط، أحزن منهم أو أحزن عليهم، لأن الموهبة جاثمة في صدورهم، ممددة في قرائحهم، ولكنهم لا يجتهدون ولا يدرسون لاستخراج الكاتب المنشود الذي نريده ويريدونه، والذي لا يكون مؤهلا إلا بالتعب والكفاح والجهد والعرق، في التعرف على أدوات الكتابة والممارسة الجادة لفنونها.

وهؤلاء لا أتعب نفسي معهم كثيرًا، لأني أعرف أنهم لا ينوون العزم لهذا الجهد، وإنما فقط هم أسرى خيال، ينتظرون اللحظة التي يمن عليهم فيها بنفحة من الخواطر.

وهذا ما لفت إليه الشيخ الطنطاوي في قوله:

"من الخطأ أن يعتقد امرؤ أن الكتابة شيء فطري في الإنسان، فهو يولد كاتبًا كما يولد الإنسان حسن الصوت، أو قوي الجسم، ولكن الصوت الجميل، يبقى ناقصًا إذا لم يدرس صاحبه الموسيقى، وكذلك الجسد القوي لا يستكمل قوته ما لم يربه صاحبه التربية البدنية، والملكة الكتابية لا تكتمل ولا تنتج الآثار البارعة ما لم تنضجها الدراسة الأدبية العميقة، وخير سبيل لهذا عند الطلاب، هو أن يقرؤوا كتب الأدب القديمة، ليتعلموا منها الأسلوب العربي، ثم يقرؤوا لأهل البيان من كتاب العصر- ثم يقرؤوا روائع الأدب الغربي لتعينهم على إتقان الأسلوب الفني."

أرأيت أيها المحب للكتابة؟

أعرفت ماذا يجب عليك فعله، حتى تكون الكاتب المنشود، وحتى تملك ناصية القلم وتستطيع القدرة على التعبير؟

بعض المشاهير وذوي الجاه والنفوذ، تظن أن الحظ لعب معهم لعبته، وأنهم خلقوا لهذه المواقع المهمة المرموقة، دون أن يكون في مسيرتهم أي عناء أو عقبات، ويغيب عنا دومًا صفحات مؤلمة من الكفاح والشقاء والعناء والتعب والجهاد عاشوها وخاضوها في حياتهم، حتى استحقوا هذه المناصب وهذه الشهرة وهذه المكانة.

وهذا لا يمنع بالتأكيد أن زماننا وعصرنا وبلادنا، تعج بالكثيرين من أصحاب النفوذ والقرار والشهرة، الذين احتلوا أماكنهم بلا أي استحقاق ولا أي مجهود ولا أي موهبة، وإنما كانت كل مؤهلاتهم، مجرد لعبة حظ أو قرابة أو معرفة، هي التي زجت بهم إلى هذه المكانة، ولكن هناك من شقوا الصخر بأظفارهم حتى برقت أسماؤهم في السماء، وصاروا يشار إليهم بالبنان.

ولعل الصحفي المرموق المرحوم (مصطفى أمين) من الأسماء اللامعة البارزة، فلا أتصور أن رجلا مثله، اعتلى عرش الصحافة، وصنع لنفسه هذه المكانة وهذا الاسم الكبير، بالمعارف و(الكوسة) والمحسوبية، ولكنه كافح كثيرًا ليصل إلى ما وصل إليه، لكنه رحمه الله تعب كثيرا ولم يجد من يقدر رغبته وموهبته وحبه للصحافة في بداية شبابه، فقد ذهب في بداياته إلى عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ ليعمل بها فرفضه، وقابل أحمد حافظ عوض صاحب كوكب الشرق فسخر منه، وقابل الدكتور فارس نمر صاحب المقطم فهرب منه، وقابل داود بركات رئيس تحرير الأهرام، فاستمهله عشر سنوات حتى يحصل على الشهادة العالية، وقابل اسكندر مكاريوس صاحب مجلة اللطائف فأجلسه مع البواب ثلاثة أيام ثم رفض مقابلته.

ولكن مصطفى أمين لم ييأس، لأنه كان يؤمن بنفسه ويثق في رغبته، ويبحث عن الفرصة بلا يأس أو إحباط.. لقد عمل ثلاث سنوات باسم

مستعار، وبلا مرتب، وكان يقبل بكل عمل يسند إليه مهما كان صغيرًا أو لا يليق، فإذا غاب سائق سيارة السيدة روز اليوسف، قاد هو السيارة بدلا منه، وإذا مرض مصحح المجلة، سهر مكانه الليل كله ليصحح البروفات، وإذا سافر بواب المجلة إلى قريته في الصعيد، جلس مكانه يستقبل زائري الجريدة، ولم يكن يتعالى أو يتكبر على أي عمل، ولم يتأفف من أن يؤدي عمل الذين يكبرونه سنًا، فكان يكتب وهم يوقعون بإمضاءاتهم على مقالاته، بلا شكوى ولا تململ ولا ضيق ولا ضجر بأنهم أعلى منه، حتى مجرد وجود مكتب له، لم يكن يطالب بشيء من هذا، وبعد ذلك كان يقدم مكتبه لأي محرر، ومع هذا الصبر والكفاح الطويل نال الصدارة وصار من ألمع الصحفيين في مصر وأقدرهم ، بل أستاذ الصحافة وعرابها.

ونال ما نال؛ لأنه كافح وتعب وناضل وصبر، وقبل كل هذا، أحب عمله وأبدع فيه وكتب وواصل الكتابة حتى عرف أسرارها وطور في نفسه أساليبها.

* * * *

الانتحار المُبكر

أحيانًا يشعر المرء بما يجول في أعماقه من خواطر، ويجد رغبة كبيرة في التعبير عنها، وهنا وفي هذه اللحظة يكون ميلاد الكتابة والرغبة في ممارستها.

وإذا وجدت الرغبة الداخلية التي يدفع ويحث عليها الوجدان والعاطفة، فقد انقطع نصف الشوط، ولا يتبقى سوى المداومة والتمرس، وتكرار المحاولات التي تُكسِب صاحبها معرفة جيدة بالكتابة وأساليبها.

وتلك اللحظة التي يولد فيها الكاتب، لا يجب أبدًا أن يعتريها أي شعور سلبي مُحبط، حين يقارن الكاتب نفسه بغيره، أو يعتريه شعور بأنه مهما كتب، ومهما سطر، فلن يصل إلى ما وصل إليه كبار الكتاب، وهو فهم خاطئ وظن سيئ، فمن بلغوا عنان السماء في دنيا الكتابة، كانوا في بدايتهم مثله، والفرق الوحيد أنهم اجتهدوا وكتبوا ومارسوا ولم يسمحوا أبدًا لمشاعر الإحباط أن تدمرهم، ولم يضعوا أنفسهم أبدًا في موضع المقارنة مع أحد، وهي العملية التي تمثل عملية انتحار مبكر لمشروع الكاتب الواعد.

والكتابة كي تؤدي بصاحبها للنجاح المتواصل، تبدأ كلما وجد صاحب القلم في نفسه ميلا للتعبير عن رأي، أو كتابة حاضرة، أو تأثرًا في نفسه يريد كتابته، فالذين يبتدئون الكتابة، لابد أن يكتبوا عن الأشياء التي تُنادي بها أنفسهم ويجدونها في عواطفهم، لأن هذا هو الطريق الأمثل لتوليد

الحماس الذي يؤدي إلى النجاح في التعبير، ولا يجبر المرء نفسه أبدًا أن يكتب في شيء لا يحبه، ولا يرغب الكتابة فيه، كما أشرنا مسبقًا لأنه لن ينجح، وربما يضيق بالقلم وييأس، حينما يظن نفسه عاجزًا عن التعبير، والحق أنه ليس بعاجز، وإنما سلك طريقا خطأ تؤدي إلى العجز.

والكتابة التي تنبع من قناعة وحماس وروح تُعجب القارئ وتشد انتباهه، فيثني على المكتوب وكاتبه، وهو الثناء الذي يكون له أثره الإيجابي في عملية تحفيز الكاتب.

كما يجب على الكاتب في بداية طريقه، أن يستشعر في نفسه حجم مسيرته من خلال ميوله، فإن كان مقتنعًا أنه محب للكتابة سائر في طريقها، يجب عليه أن يتمتع بشيء من الثقة بالنفس، ولا يلتفت إلى نقد الناقدين الذين لو تأثر بهم لأصيبت غايته بالشلل والعجز.

كما يجب عليه أن يتنبه إلى أن النشر- أقوى الدوافع والمحفزات التي تعينه وتشجعه، لا على استمراره في الكتابة فقط، وإنما على إيمانه بنفسه وقلمه وموهبته، فالنشر هو غاية المجد الأدبي، الذي يعزز من قناعة الكاتب بنفسه وبقلمه، ولعلنا في هذه الأيام قد أتيحت لنا الفرصة كثيرًا عما سبق، حيث كان النشر قديما عسيرًا جدًا، أما اليوم فقد تعددت قنواته ونوافذه، التي يمكن من خلالها نشر- ما يريد الكاتب، عبر مواقع التواصل الاجتماعي، والصحف الإلكترونية المتعددة، التي تتبنى نشر مقالات الموهوبين وقصصهم.

إن أهم نقطة ننصح بها الذين يريدون احترافية الكتابة، هي المواصلة المستمرة للكتابة، فلا يمر عليهم يوم دون أن يكتبوا، لأن القلم يصدأ كما يصدأ الحديد، وإذا صدأ القلم تعذر أن تعيد إليه بريقه إلا بجهد شاق، ومن هنا كان لابد للكاتب أن يواصل ويستمر حتى يتمرس، لأن هذه المواصلة هي التي تولد طور التطور في الأسلوب والكتابة، حيث إن القلم فيها نعده يكتشف نفسه، ويتقلب يمينا ويسارًا في مناطق جديدة، ومناح مختلفة، تسهم في بنائه وتطوره، وقد قالوا في المثل: اكتب لتكتب، أي أن الكتابة تولد الكتابة.

ينصح خبراء الكتابة دومًا بالقراءة المستمرة " فيذكر أن غابريال غارسيا ماركيز قرأ نحو ١٠٠٠ كتاب قبل أن يبدأ بكتابة روايته الأسطورية مائة عام من العزلة، كما أن الكاتب الأمريكي روبرت غرين، صاحب كتاب ٤٨ قانونًا للسلطة، واحد من كتبه الأكثر مبيعًا، أكّد أنه يقرأ من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ كتاب لكي يقوم بإعداد بحثٍ لكل كتاب.

القراءة بالنسبة للكاتب أو لغيره، عملية حيوية، لا ينبغي أن تكون هواية، بل ضرورة كباقي الضرورات اليومية، بغض النظر عن كون القراءة عملية تنطوي على كثير من المتعة، فهي تنطوي على عدد لا حصر له من الفوائد للدماغ، للصحة النفسية وللحياة الشخصية للقارئ، والمهنية للكاتب، القراءة لا ينبغي أن تنحصر على الكتب فقط، فقراءة المجلات،

المقالات، الجرائد، كلها تلعب دورا في تحسين مهارات الكاتب، إضافة إلى تنويع مجالات القراءة في الفنون والتاريخ والأدب والفلسفة والعلوم... وغيرها."

وأمام هذا الكلام نؤكد على أن للكتابة المستمرة المتواصلة، دورها القوي والساحر والمؤثر في تنمية وتطوير أسلوب الكاتب، فهي مما لا يستغنى عنه أبدًا.

قرأت للأديب الكبير محمود تيمور رحمه الله كلاما راقني حيث قال فيه: "نصيحتي للأديب الناشئ أن يباعد بينه وبين النقد والنقاد حتى يشتد عوده"

والحق أن هذه الجملة، (حتى يشتد عوده) قد لفتت انتباهي وتفكيري، وهي جملة ربما تؤرق الكثيرين من الموهوبين المبتدئين، لأن أحدهم يجنح ويطمح أن يكون فيما كتبه غاية الإبداع ونهاية الجمال، ولو أنك صارحته بفكرة التطور والتكوين واشتداد العود، لحزن وضجر وشعر بنوع من اليأس والاحباط.

حتى الناقد يجد حرجا بالغا لو قال له الأديب الناشئ: ما رأيك فيما كتبت؟ يجد حرجا عصيبا لو قال له: استمر حتى يشتد عودك، لأنه لا يحب

إلا أن يسمع عبارات المديح والآطراء، وأي نصيحة أخرى في اتجاه آخر ربما تصيبه بتعقيد بالغ.

فلماذا أيها المبتدئ الموهوب، لا تؤمن باشتداد العود، وتؤمن بأن موهبتك تحتاج إلى صقل وتطوير؟ وأنها بمنهج المحاولة والدراسة والدربة، تكون في طريقك الصحيح إلى مبتغاك؟

لا تظن أنك حينما تمسك بالقلم لأول مرةفي حياتك، فإنك ستكتب أدبا يضاهي أدب الرافعي والعباد ونجيب الكيلاني، إن ما كتبته ياعزيزي جميل حقا، لكن هناك أجمل، وما كتبته حسن جدا، لكن هناك أحسن، والأجمل والأحسن لا يأتي إلا مع الوقت وبمرور الزمن، وما يصاحبه من تمرين وتدريب وصقل وتمرس وتطور، وهكذا كان الحال مع الكبار، كلما تطور بهم الحال ومر بهم الزمن، فنراهم يتمكنون أكثر وأكثر من صور البيان والتعبير، والسيطرة البالغة على جموح القلم.

لقد عاب نجيب محفوظ روايته الأولى عبث الأقدار، وقال عنها:إنها عبث عيال، وكان كلما ذهب لسلامة موسى ليأخذ رأيه في رواية كتبها، يقول له موسى: استمر استمر، أي أنه لم يبلغ الغاية التي يطمح إليها بعد، ولم يستكمل عدته اللازمة ليكون أديبا صاحب تصنيف، حتى جاءه يوما بعبث الأقدار وطبعها له.

لقد قرأت اول كتاب كتبه أديب الأمة ومفكرها العظيم محمد الغزالي، فتعجبت من الأسلوب، لأنه لم يكن هو نفس أسلوبه في كتبه الأخرى التي توالت مع الزمن والوقت، وصاحبتها عوامل التطور والإجادة والنبوغ والتمكين والتعبير الأوفر والحِس الأدق.

وكان أنيس منصور يعيب بعض مؤلفاته المهمة، ويجزم أنه لو أتيح له الوقت لأعاد صياغتها بشكل يرضيه، وكان هذا بعد مرور الوقت وما صاحبه من نبوغ وتطور وتحسن وامتلاك لناصية القلم، وتمكن من القدرات البيانية والتعبيرية التي لم تكن وفيرة بالشكل التي صارت عليه لديه فيما بعد.

وهكذا شأن كل شئ في الحياة، لا يستكمل عدته وغايته من الكمال والتدقيق والإجادة، إلا مع الوقت والدربة والتمارين والتمر والدراسة والتطوير.

وليس معنى هذا أخي الأديب وأختي الأدبية، أن أن ييأس الكاتب بحجة أن التطوير طويلة أيامه، بعيدة أزمانه، وصبره لا يطاق، فهذه الروح اليائسة منك، خيانة لعشقك للقلم وإيمان بالكتابة، وما عليك إلا أن تواصل وتستمر وتنتج وتبدع، وليأت التطوير وقت ما يأتي.

ويكفيك أن تعلم أن ما تكتبه اليوم، يمكن أن تعدل فيه بعدما تكون قد امتلكت ما لم تكن تملكه بالأمس، فتضيف إليه لمسات الجمال، ليظهر في أبهى صورة وأسمى تجسيد.

رجاء استمر استمر، كلمة قالها سلامة موسى قديما لنجيب، ونعيدها عليك اليوم، ونطرق بها أذنك وسمعك ووجدانك، رجاء اسمر استمر، ولتؤمن بالتطوير والتدريب، وضرورة ألقت الذي يمنحك كل هذا.

* * * *

ما عليك فقط إلا أن تبدأ

كثيرون ممن يريدون أن يكونوا شيئًا مهمًا في الحياة، يملكون الأدوات والمواهب التي تمكنهم وتؤهلهم لبلوغ هذا الشيء، لكنهم لا يستطيعون تحقيق أية خطوة فيه، أو الوصول إلى غايتهم منه، لأنهم يستصعبون الخطوة الأولى، ولا يعرفون الطريق إلى البداية، ويتهيبون الدخول إلى عالمه، ويعجزون على إدراك نقطة الانطلاق، فإذا بهذه الحيرة تدفعهم إلى هَجرهِ والعزوف عنه، وتحطيم أمانيهم وأحلامهم التي كانوا يتوقون إليها يومًا ما. والحق أن هذا التهيب لا مبرر له، فهو وهم كبير، فما دمت تملك أدوات الشيء ومؤهلاته، فإنه لا ينقصك إلا أمر واحد يسير بسيط، ألا و هو البدء فيه، بأي شكل كانت هذه البداية، كبيرة أم صغيرة، تافهة أم فخمة، قوية أم ضعيفة، مرضية أم منفرة، ابدأ بأي شيء! فالمهم أولًا أن تبدأ، ثم يأتي بعد ذلك التطوير والتحسين والتعديل والحذف والإضافة والتكميل والتهذيب، وكل الأدوات التي تبلغ بالعمل إلى درجة الكمال والتمام، وتؤهله لنهاية مُرضية وناجحة ومحمودة، فهل وعينا وعرفنا إذن كيف نلج إلى أحلامنا ونحقق مبتغانا ونصل إلى ما نتوق إليه؟! هل علمنا الآن كيف لو أننا شجعنا الكثيرين على مجرد البداية، وعدم الخوف من مستحيل ضخم أو حلم بعيد المنال؟!

إن أحدهم سألني يومًا وقال لي: أريد أن أكون كاتبًا وفي ذهني وعقلي أشياء كثيرة وأفكار عديدة، ولكني لا أعرف كيف أكتب ومن أين أبدأ؟! فقلت له وبكل سهولة: ما عليك فقط إلا أن تبدأ! حتى ولو كانت البداية بشيء تراه تافهًا سخيفًا، ودون المستوى الذي تنشده وتتمناه، فإنك مع هذه البداية بالتعديل والتحسين والمراجعة والإضافة والحذف، ستصل إلى ما تريد من الرتبة والدرجة التي كنت تصبو إليها وتنشدها، فكثير من إنجازات الحياة التي أقامها العباقرة والعظماء، ما كانت في بدايتها إلا أفكارًا أو بدايات متقزمة هزيلة، ثم أصبحت بالتحسين والتطوير والتعديل شيئًا ضخمًا مبهرًا يسر الناظرين، ولكن ما علينا فقط إلا أن ندرك أن السر في البداية، التي يتهدم بعدها كل عسير وصعب.

كثير من الكتب المهمة في حياتنا ما كانت إلا مجرد خواطر ومحاضرات أو أفكار بسيطة، ألقاها أصحابها على الجماهير من حولهم أو المستمعين لهم من الطلاب والمريدين، ومع التفكير والتطوير والتحسين، أصبحت كُتبًا مؤثرة ومحورية، قادت الجنس البشري كله على اختلاف بلدانه وألوانه، وأضافت للحياة منافع عظيمة، وعلى هذا يكون الانطلاق ويكون المسير، فإذا عرفت موهبتك، وعلمت إمكانياتك، وأيقنت رغبتك، فلا تستصعب شيئًا في الحياة، ما عليك إلا أن تصبر وتؤمن وتستبشر وتوقن بالنجاح، وتثق

في نفسك أنك يومًا ما ستكون كما تريد، فهذه هي القوة والوقود الذي يبلغك إلى غايتك.

يجب أن تكون في هذا شبيهًا بـ"أندريه أجاسي" الذي فاز في بطولة (ويمبلدون) للتنس الأرضي عام ١٩٩٢م، والذي رسم البداية في خياله و انطلق منها ليصل إلى هدفه المنشود، وحينما جاءه الصحفيون يباركون له و يهنئونه بالفوز وهم يقولون: مبارك عليك هذا الإنجاز يا (أجاسي)! رد عليهم مستنكرًا: لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أفوز فيها ببطولة (ويمبلدون) فقد فزت بها آلاف المرات من قبل، فنظر الصحفيون إلى بعضهم متعجبين مستغربين من قوله، وقالوا له: ولكننا لم نعرفك إلا هذا العام، ومن فوزك فقط في هذه البطولة! ولما أدرك حيرتهم قال لهم: نعم لقد فزت بها قبل ذلك حينما كان عمري ١٠ سنوات، حيث كنت لا أنام ليلتي إلا بعد أن أكون قد تخيلت فوزي هذا، وتخيلت نفسي. وأنا أرفع هذه الكأس، لقد تخيلت فوزي وإنجازي وسعادتي آلاف المرات. لقد عرف (أجاسي) ما خفي على كثير من المتعثرين؛ عرف البداية التي جعلها النقطة والطريق التي يصل منها إلى أمله، لقد كانت هذه البداية هي ذلك الخيال الذي دفعه إلى التدريب والإعداد والتحسين والتطوير إلى أن أصبح بطل العالم.

هل تصدق أن (محمد التابعي) صاحب القلم الجبار الذي أسقط حكومات وعزل وزراء، وكان الكل يخشاه ويعمل له ألف حساب، لما يخط

من مقالات سياسية جريئة ناقدة، لم يكن يحب السياسة ولم يكن يستطيع أن يكتب فيها ولم يكن يميل إليها؟! إذن فما القصة وكيف كان هذا التحول من كاتب في الفن والتمثيل إلى أعظم كاتب سياسي في مصر؟ يأتي ذلك حينما كان يعمل مع (روز اليوسف) في مجلتها الفنية، والتي كانت تخسر باستمرار، فنصحها أحدهم أن تكتب في السياسة حتى تنال رضا القراء، و يقبلون على مجلتها و تحقق النجاح المرجو، ومن هنا كان لابد لهذا التحول أن يتحول معه المحرر الأكبر في المجلة ورئيس تحريرها الأستاذ (محمد التابعي) من الفن إلى السياسة، لكنه كان يثور لمجرد أن تطلب منه (روز اليوسف) أو أي زميل بالمجلة أن يكتب في السياسة ودواعيها، وكانوا يستقبلون هذه الثورة بالابتسام، حيث يتفهمون موقفه، لكنهم لم ييأسوا و أعادوا عليه الطلب مرة أخرى، و شجعته (روز) وسهلت له الأمر بقولها: الفرق بين كتابة أخبار السياسة، وأخبار الفن بسيط جدًا -هو فقط- بدلًا من الكتابة في (يوسف وهبي) تكتب عن (زيور باشا)، و هذه البساطة في الشرح، كانت تثير أعصاب التابعي، لدرجة أنه في ليلة والنقاش حاد حول هذا الموضوع، قال للجميع : "يا اخوانا أنا معرفش أكتب في السياسة ولا أقابل السياسيين " وأسند كتابة هذا الباب لبعض محرري البلاغ، و إزاء هذه المواقف المضطربة بدأ (التابعي) يكتب في السياسة، و فتح بابًا جديدًا تحت عنوان (مسرح السياسة) وكان يعلق فيه على الأخبار بأسلوبه المميز، و شيئًا فشيئًا تطور

الأمر وظهرت موهبته السياسية، ليصبح أكبر كاتب سياسي مؤثر يتطلع الجميع لرأيه ومقالاته -فقط لأنه بدأ- فهل نبحث لنا عن بداية؟! أم أننا نُحب أن نظل في حيرة مؤرقة، واضطراب مظلم، نسوّف و نؤجل، حتى يذهب حماسنا و تنصرم عزائمنا و تضيع مواهبنا، و تتكسر أحلامنا و نخسر مستقبلنا.. رجاءًا ابدؤوا!

ربما يجول في خاطرك أن تكتب حول موضوع معين، يقدره عقلك، ويثمنه فكرك، وينشرح له صدرك، لكنك في ذات الوقت، ترى أنه أكبر منك، وأن قدراتك العقلية والمعرفية لا تؤهلك للكتابة فيه، وتجشم عرضه، والعزيمة على طرحه، وقد تحدث هذه الإشكالية حول كتاب أو مقال أو بحث أو محاضرة.

وهناك أنواع من الناس، تتنافس في ذواتهم صراعات بين الرغبة في ولوج ما يشتهون الكتابة فيه، وبين الإيمان بضآلة أحجامهم، فيظل أحد العنصرين يطارد الآخر، فما إن يتغلب أحدهما على صاحبه حتى تكون له الغلبة.

ونريد أن نقول: إن كثيرًا من الكتاب تهيبوا كثيرًا من الموضوعات، التي كانت الكتابة فيها عالمًا مجهولا لهم، ولا يعرفون كيف يدخلونه ويبدؤون فيه؟ ولكنهم بمجرد هذا البدء، تكشفت لهم بعض الحقائق، وانطلقوا كفرس

جموح، يكتبون ويحققون المعجزة، التي كانت قديمًا حلمًا بعيد المنال عاجزون عن تحقيقه.

بل الدهشة الكبيرة، حينما نجد بعض الأعمال المهمة في الحياة، والكتب التي كان لها تأثيرها الفكري على مدار الأجيال والأيام، ما كتبها أصحابها، إلا وكانوا من قبل يتهيبون موضوعها، ويرون أنفسهم عاجزون عنها، ولم يكن يعرفون كيف يبتدؤون السير فيها.

هناك عامل مهم جدًا يستطيع الإنسان أو الباحث أو الكاتب من خلاله، أن ينتصر على أي موضوع وينجح في إحاطته وإنجازه، لو أنه تحقق في نفسه، وهذا العامل وهذا العنصر هو الاندماج والمعايشة، فالشيء البعيد الغريب الجديد تتهيبه نفسك، وتستوحشه قريحتك، لكنك بمجرد الولوج إلى ساحته تبدأ نفسك في إلفه، والتعرف على مساراته، فتزول الوحشة من نفسك شيئًا فشيئًا، فترى وقد عرفت طريقك فيه، من أين تخط ومن أين تكتب وكيف تنتهي؟.

كتاب الحلال والحرام في الإسلام للعلامة الدكتور القرضاوي، هذا الكتاب الذي قد شرق وغرب ونال شهرة عظيمة وترجم بعدة لغات، وكان زادًا عظيمًا لكل المسلمين في بقاع الأرض في مادته الفقهية، حينما طلبت إدارة الثقافة بالأزهر من الشيخ أن يؤلف هذا الكتاب، بناء على طلب بعض الأقليات المسلمة، التي تريد كتابا شاملا في الفقه، يتناول القضايا بأسلوب

سهل وعصري، تحير الشيخ ولم يلج من قبل عالم التأليف، كما لم يكن له مصنفات في الفقه، ثم زادت حيرته، حينما لقي أحد العلماء وقال له: وقعت في الفخ يا قرضاوي، فقد طلب نفس الموضوع من العالم الفلاني عضو هيئة كبار العلماء، ولكن الشيخ قال له: يجعل سره في أضعف خلقه، ولعل الله تعالى يكرمنا بشيء.

كان الموضوع مهيبًا لم يعرف القرضاوي من أين يبدأ وكيف يخط وفي أي شيء يكتب؟ لكنه بمجرد الدخول في الموضوع والاندماج فيه ومعايشته، تكشف له المغلوق، واستبانت له الخطة التي يسير عليها، وتحقق الحلم الذي ما زال إلى اليوم مرجعًا مهما لكل مسلم.

نفس الحال في كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة أبو الحسن الندوي، وناهيك عن شهرة الكتاب التي شرقت وغربت، ولا تخلو منه مكتبة مسلم أو مولع بالثقافة الدينية والفكر الإسلامي، يقول الندوي:

"وكنت أشعر بخطر الموضوع وأهميته، وبقلة بضاعتي وحداثة سني، وقلة أعواني، وجِدة موضوع الكتاب وطرافته، ولكن لم أكن في الحقيقة مخيرًا بل كنت مسيرًا، كأن هاجسًا يهجس في ضميري ويقول لي: لابد من وضع كتاب في هذا الموضوع."

وما أن بدأ واندمج، حتى تحقق الحلم والطموح.

بهذه المقالة وبهذا الاستنتاج كان ردي على أحدهم، شرح لي أنه يود كتابة موضوع معين، وإنجاز عمل يتوق إليه، لكنه لا يعرف كيف يبدأ ويتهيب الموضوع ويراه كبيرًا، لكننا اليوم نقرر أن عنصر الاندماج لو توفر، فلن يقف أمامه شيء، فقط نبدأ لتتحقق المعايشة، فتزول الوحشة والهيبة من القلب.

* * * *

أيها الكاتب تأكد وتمحص

أحيانًا تكون للقلم شهوة جامحة في الكتابة عن فكرة طرأت على العقل، وخيمت وشائجها في الوجدان، أو شيء تلقفته أذنه من هنا أو هناك، فيسرع إلى الكتابة بحماس شديد، دون أن يتبين أو يستوضح أو يفهم.

يسير منقادًا خلف الشائعة، أسيرًا للقيل والقال دون أن يتأكد أو يتفحص، فإذا به يخطئ في النهاية، وتكون كل استنتاجاته مدعاة للسخرية الشديدة.

هل تتخيل أنني وقعت في هذا المغرز يومًا ما؟!

إي والله قد حدث، فأذكر أننا عقب ثورة ٢٥ يناير تبادرت إلى الأسماع، وردد بعض الشباب على الصفحة الرثاء، وفاة فتاة ناشطة سياسيا، وروي عنها بعض القصص الدرامية المحزنة، وعلى الفور انغمس قلمي في رثائها، والإشادة بعظمتها، والإشادة بماضيها وذكرياته الملهمة، وعزيت فيها كل الوطنين الثائرين، وطالبت أن تكون أيقونة لحب مصر.

وما لبث المقال أن نشر في بعض الصحف الإلكترونية، وشاع أمره، وانتشر عنوانه، حتى خرجت الفتاة على الجميع تثبت حياتها، وتنكر ما تردد من شائعة وفاتها.

كان الموقف مدعاة للسخرية الكبيرة، وتواريت خجلا مما كتبت وسطرت، ومن يومها وأنا أحاول قدر الإمكان، ألا أكتب إلا بعد تبين وتمحص، حتى لا أضل الناس وأخدعهم بشيء مكذوب.

كما تعلمت أن هذا الحذر، يجب أن يحسب الكاتب حسابه ألف مرة، خاصة إذا كان كاتبًا مصريًا، لأن الشعب المصري له طبيعة خاصة في التعامل مع الأكاذيب وترديدها والترويج لها.

الفيلسوف الكبير د. عبد الرحمن بدوي يروي لنا حادثة مشابهة لكتاب أشاعوا الجهل والخطأ عن الفلسفة الوجودية التي كان هو من روادها، بمجرد بعض المظاهر التي رأوها ولا تمت لها بصلة، فكتبوا عنها وهم يدمجون بينها وبين ما رأوا من مظاهر حياتية، يقول بدوي:

"زار باريس غداة الحرب العالمية الثانية، بعض الصحفيين المصريين، ولأنهم غاية في الجهل والصفاقة والادعاء، فإنهم سمعوا الناس يتحدثون في باريس عن الوجودية، ورأوا فتيانا وفتيات في حي سان جرمان دي بريه متحررين من بعض القيود الاجتماعية، خاصة في العلاقات الجنسية، فتوهموا أن هذه هي الوجودية، مع أن هذا التحرر مشاع في باريس منذ مئات السنين، ولا علاقة له بأي مذهب فلسفي، ولكنه الجهل الذي دفع الصحفيين أن يربطوا بين الأمرين، بين ما هو مشاهد في باريس منذ أزمان، وبين الموضة

السائدة أنذاك أي الوجودية، ولم يكلفوا أنفسهم قراءة أي كتاب بسيط عن الوجودية، حتى يفهموا ما هي، فلما عادوا لمصر، راحوا يكتبون مقالات عما شاهدوه في باريس، فزعموا أن الوجودية هي التحرر الأخلاقي خصوصًا في أمور الجنس، وهو جهل كبير بالوجودية وتلفيق عليها."

ثم يعقب بدوي بكلام مهم جدًا عن المصري وتلقيه للشائعات والأكاذيب فيقول:

"والمصري بطبعه لا يتمعن في أي شيء يقرؤه أو يسمعه، بل يصدق أي شيء ما دام الأمر لا يتعلق بمصلحته الشخصية، والعجيب في أمره أنه إذا وقر في ذهنه أي شيء، حتى أكذب الأكاذيب، فإنه لا يتخلى عنه بعد ذلك مهما أتيت إليه على عكسه بألف دليل ودليل، ولهذا كان من المحزن حقا أن تسمع من أفواه المستشارين في القضاء وكبار المحامين والأطباء والمهندسين إلخ، نفس الجهل الفاضح عن الوجودية، الذي تلقوه من كتابات الصحفيين الموغلين في أحط درجات الجهل، وذلك لأنهم لا يكلفون أنفسهم عناء قراءة أي كتاب جاد في أي موضوع خارج مهنتهم، ولا يحققون في صحة ما يسمعون أو يقرؤون، وهذا في نظري أعضل داء أصيبت به عقول المصريين."

أرأيت وكيف تبين لك أن مهمة الكاتب مهمة شاقة؟ إذ به وعليه تقوم ثقافة الأمة والشعب، وإذا لم يكن على درجة كافية من التثبت والفهم

والايضاح، كان خطر ما يكتب شديدًا على معارف الأمة التي تبني وعيها، ليكون ولوغًا عنيفا في الجهل.

إياك أن تظن أن الكتابة سهلة، وأن أمرها لا يعدو إلا أن تمسك بالقلم فقط، وتحكي ما بداخلك.

ربما يكون ذلك صحيحًا ولكن عليك أن تدرك وتوقن، أن القلم الذي ليس له جمهور، قلم صعلوك تافه لا قيمة له، والمداد الذي ليس له قراء، مداد أبتر، وهو في حقيقته ليس إلا ماء عكرًا تغير لونه بعارض من عوارض القذى.

كثير هم أولئك الذين يكتبون، وقليل هم من يقرأ لهم.

ربما تظن أن الأسلوب الجميل، هو الضمان الأكبر لنجاحك ككاتب، ولكن ماذا بك لو رأيت رجلا جميل المظهر بهي الطلعة، وسيم الوجه، حلو الملامح، لكنه من داخله حقير تافه خسيس كذاب لص محتال؟!

كيف يكون حكمك؟

هل ترى فيه بعد ذلك شيئًا من جمال؟

أعتقد أن صفات الجمال فيه، ستتحول في نظرك بقدرة قادر إلى صفات سوء ورداءة وقبح.

وهكذا يكون الكاتب الذي لا مضمون في كلامه ولا قيمة لما يكتب إلا العبث والهراء.

إنني أتعب على مقالي وأدعمه بالبحث، ولا أكتب أبدًا لمجرد الظن والشبهة، أبحث كثيرًا وأقرأ فيما أريد الكتابة فيه كثيرًا حتى أخرج بشيء صادق ممحص محقق، أضمن به تقدير القارئ واحترامه وإفادته.

كثير من الباحثين وقعوا في أخطاء كبيرة وأغاليط، ما لبثوا أن اعتذروا عنها فيما بعد، ولكنهم مع هذا نالوا شرف البحث والتنقيب حتى توصلوا لنتيجة ملموسة، حتى ولو كانت خاطئة، لكن اللوم الكبير يبقى في عنق هذا الذي يكتب بالشبهة، ولا يكلف نفسه عناء البحث والتفتيش عما يريد الحديث عنه، ليخرج في النهاية بكلام غير دقيق.

ما أكثر ما أعجبني الأستاذ نجيب محفوظ، فقد ذكر أنه حينما أراد أن يكتب روايته عن مصر القديمة، والتاريخ الفرعوني، فإنه قد درس هذا التاريخ وأدمن النظر فيه وتبحر موغلا في مراجعه إلى حد بعيد، وانطلق بعد ذلك فأنتج شيئًا مبهرًا جذب القراء، وكانت رواياته رادوبيس وكفاح طيبة والعائش في الحقيقة، وعبث الأقدار، روايات كلها تشهد بهضم هذه الفترات واستلهام روحها.

وكان هذا ديدن أديب العربية الأكبر، مصطفى صادق الرافعي، حيث وصفه تلميذه العريان بقوله: "إن الرافعي لكثير الأناة والتأنق فيما يكتب، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه، حتى يخلي له فكره أيامًا وليالي يبحث ويوازن، ويزاوج ويستنبط؛ ثم يتهيأ للكتابة، وقد استوى الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب... كان يُجهد نفسه في الكتابة، ويحمل من همها ما يحمل، وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه، أو يشعوذ عليهم، ليملأ فراغًا من صحيفته يريد أن يمتلئ؛ على أنه أحيانًا كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهيأ لموضوعها، أو يفرغ له باله، فيمليها على عجل بلا إعداد ولا توليد، لكنك كنت تجد عليها طابعه، وتعرف أنها له ولو لم يكن عليها اسمه"

وكان أحمد زكي باشا شيخ العروبة من أكبر المحققين الذين لا يكتبون إلا بعد تمحيص وتدقيق عميق بعيد المدى في هذا العمق، حيث يقول: " أنا أكتب مقالاتي بعد أن أضني فيها جسمي، وأسهر عليها ليلي، وارتكب فيها أكبر جريمة تستحق الشنق والاعدام..

نعم أنا لا أكتب إلا عن علم ويقين، وبعد أعمال الرأي الخمير، فإنني والله أقتل مباحثي قتلا فلا أخرج للناس إلا ما صح عندي أنه علم اليقين"

ووصفه أحد المقربين منه بأنه: " كان كثيرًا ما يمضي الليل لا تكتحل عيناه في نوم ويوصله بالنهار، ولا يلتقي له جفن بجفن، بل كثيرًا ما وصل الأسابيع بالأسابيع، وأدمج الأشهر في الأشهر مكبًا على تحقيق اسم واحد"

كُتّاب مجانين صحيح

إذا واتتك الفكرة ككاتب ولم تسجلها ضاعت عليك، ومن هنا تستطيع كثرة الأفكار التي تواتيك في كل مكان، أن تصورك للناس كالمجنون، الذي يُسارع لتسجيل أفكاره، فيكتب في أماكن لا تليق فيها الكتابة، ولا تنسجم مع أحوالها.

ولكن الناس لا يدركون ولا يفهمون هذا الحزن العميق، لو ضاعت من عقل الكاتب فكرة سوَّف تسجيلها، إنه ألم كبير وفقد عظيم، يظل أيامًا طويلة يعاني ألمه ومشقته وخسارته.

أما الكتاب الذين يشتكون قلة الأفكار، ولا يعرفون في أحيان كثيرة ماذا يكتبون ويستلهمون ما تخطه أيديهم؟ فهؤلاء يظلون فترة طويلة على هذا السمت العاقل، حتى تدهمهم سيول من الأفكار، فتحولهم إلى صورة المجانين، الذين يكتبون في كل المواطن والأوضاع، التي قد لا تنفع معها الكتابة.

تذكرت هذه الصورة حينما تأملت الأديب الشيخ علي الطنطاوي وهو يصف حاله، حينما نشط عنصر الفكر في ذهنه، فصارت قريحته ترميه بالأفكار المتتابعة التي لابد له من تسجيلها، فقد كان يقول: "كان كل ما أرى، وكل ما أسمع، يجعلني أكتب، أقوم من منامي وأكتب، وأقف على جانب الرصيف

لأكتب، ولطالما كتبت المقالات والقصص، على حواشي الجرائد وعلى كيس البقال، لقد قرأت مرة ما كتبه الأستاذ محمد نمر الخطيب عن بنات العرب في إسرائيل، وأنا على قوس المحكمة، وبعدما فرغت من المحاكمات، فكتبتها على كل قطعة ورق تحت يدي، ولم أنتظر حتى أنزل عن القوس إلى غرفتي، ولم أنزل حتى كتبت القصة كلها في جلسة واحدة."

ولا تحسبن الطنطاوي إنسانًا عجولا، أو أنه يخشى ضياع الفكرة، ولكنه يدرك ما تحدثنا عنه كثيرًا، وهو الخوف من ضياع الحماسة للفكرة، فإنها لو ضاعت، فلن تستطيع الكتابة عن الفكرة كما كنت تأمل وترجو، سيكون الحماس لها فاترًا باهتًا، ولن تكون مكتوبة بهذه الروح التي صاحبتها حينما دب رنينها في العقل أول مرة.

ولو أنك فقدت هذ الحماس، فإني أعتبره مساويًا لضياع الفكرة من عقلك حينما تؤجل كتابتها، أو تسوف في تسجيلها.

وحالة الأستاذ الطنطاوي هو الدرس الذي تحدث عنه كثيرًا فقهاء الكتابة، واسمح لي هنا أن أقتبس كلامًا جميلا شاجيًا للكاتب المغربي المبدع ربيع السملالي في هذا الأمر حيث يقول ناصحا:

"يا بني عندما تعثر على فائدة في بطن كتاب من الكتب، أو مجلة من المجلات الأدبية والفكرية والعلمية، ولا يوجد قربك قلم ودفتر، فإياك أن

تجعلها تمر دون تسجيل، فقد لا تجدها في غير ذاك الموضع، لذلك ينبغي اهتبال فرصة التسجيل، أو التصوير بهاتفك الذكي، فإن لم يكن لك لا هاتف ولا قلم، فأوقف القراءة أو اجعل علامة بارزة على الصفحة التي توجد فيها الفائدة، للرجوع إليها في أقرب فرصة، واعلم بارك الله فيك، أن آفة العلوم الكسل والتسويف والنسيان.. ورحم الله سلفنا الصالح، فقد كانوا من أشد الناس حرصا على طلب العلم من فوائد ودرر.

واسمع ما قاله الإمام الشعبي وما أدراك ما الإمام الشعبي، وهو يوصي أحد طلابه بقوله:

(إذا سمعت شيئا فاكتبه ولو في الحائط)"

فلنسجل أفكارنا، ولنحذر التسويف، لأن المعنى الحقيقي للتسويف هو التضييع، اكتبوا في كل مكان داهمتكم فيه الفكرة، في الطريق والعمل والشارع والتسوق والطعام والمواصلات، حتى ولو كنتم في قضاء الحاجة، فلا تتركوا القلم والكتابة، وإلا ضاع كنزكم الثمين، وتبدد الرزق الذي ساقه الله تعالى إليكم.

لقد كان الرافعي رحمه الله في عزاء خطيبة نجله، التي توفيت بمرض مزمن قبل زواجها، وكان موتها مؤثرًا محزنًا، وتفقده الناس في العزاء فلم يجدوه، فلما بحثوا عنه وجدوه في البيت، ولما سألوه أين كنت؟ فأخبرهم أنه

ترك المأتم والمعزين ليفرغ لكتابة مقالة عن الحادثة، قبل أن تذهب معانيها من نفسه وخاطره، حيث كتب عن مأساة العروس الراحلة، التي بدلا من أن تُزف إلى ولده، زفت إلى القبر، وكان هذا عنوان المقال (عروس تزف إلى القبر).

الإتيان بالأفكار الجميلة، التي تلهمك كتابة مقالة أو سرد قصة شيء عظيم وأمنية مبهجة..

ويوم السعد الحقيقي، حينما نرزق بالأفكار، التي تمثل وقودًا لأقلامنا فتكتب بلا توقف، نعم فالأفكار رزق، تمامًا كالعمل والمال والطعام، وأحيانا كثيرة يجف معين الأفكار، فنسأل المتخصصين في الكتابة وعاشقي القلم، ما الحل وكيف الخروج؟

كتبت كثيرًا عن طرق توليد أفكار الكتابة، حتى أنني نشرت عنها في كتابي الأخير (دهاليز الكتابة)، وكان مما ذكرت فيه كذلك عنوان مهم عن تلك الأوقات الحرجة وغير المناسبة، التي تداهمنا فيها الأفكار ونحن لسنا مستعدين لها.

تحدثت عن مداهمة الأفكار لنا أثناء قضاء الحاجة وفي بدايات النوم، وأحيانًا حينما نمشي في الشارع نتأمل بعض الأشياء أو يسرح خيالنا فيها.. كانت هذه هي الخيارات التي أعرفها كرجل، حتى حدثتني إحدى الكاتبات،

بأن أخطر توقيت تهاجمها فيه الأفكار، في المطبخ وقت إعدادها للطعام، أو غسل الأواني، حتى أنها إذا جف قلمها وأرادت أن تكتب عن فكرة ما، فما عليها إلا أن تدخل المطبخ، حتى يأتيها سيل مدرار من الأفكار المبهرة، التي يجب أن تُسجل.

تقول الكاتبة الإنجليزية الشهيرة أجاثا كريستي:

"حبكات رواياتي البوليسية أهتدي إليها وأنا أغسل الصحون، لأن هذا العمل الغبي يدفعك بشكل لا إرادي للتفكير في القتل"

ورغم جمال الفكرة وروعة المكان، وسهولة ارتياده لتحصيل الأفكار واستنتاجها، إلا أنه خطير كل الخطورة، فالعبث لا ينفع أبدًا مع الطعام الذي يجب التركيز فيه، والذي كذلك لا ينضج إلا بالنار، أي أن الأمر يقفز مباشرة إلى العبث مع النار، وهو أمر جلل.. ولعل الذي ساقني لهذا التحذير ما عرفته من سيرة الكاتب الكبير أحمد أمين، حينما أصابه الملل من الكتابة بعض الأحيان، ففكر في طريقة يسري بها عن نفسه، فذهب إلى المطبخ وقرر أن يصنع مربى البلح، فأتى ببعض البلح وشرع في التنفيذ، ووضعه مع بعض السكر على النار، ونسي أن يضيف الماء، وفي هذه اللحظة تحديدًا، حدث ما كنا نحذره، حينما قفزت إلى ذهنه فكرة، فترك كل شيء وأسرع لكتابتها وتسجيلها، ونسي مع قلمه أمر المربى وقصة المطبخ والنار المشتعلة، وبينما هو

منشغل بالكتابة، حتى وصلت إلى أنفه رائحة حريق، وإذا به يجد البيت كله قد امتلأ بالدخان، وكانت زوجته في هذا الوقت خارج البيت، فلما عادت استقبلها بابتهاج وابتسام غير معهود: أهلا بالست أم حمادة، فردت عليه قائلة: والله شكلك عامل عمله، وسرعان ما تم اكتشاف الخيبة الثقيلة، التي كان السبب فيها هذه الفكرة التي أولاها الكاتب كل اهتمامه.. ولكنني في الحقيقة لا أرى الفكرة هي السبب، وإنما السبب الحقيقي هو المطبخ، فدخول الكتَّاب للمطبخ خطر كبير، ولتدرك المرأة الكاتبة أنها في خطر عظيم لا لأنها في المطبخ، ولكن لأنها كاتبة، فالأفكار التي ستداهمها، لا تختلف أبدًا عن هذا الجاز أو البنزين الذي نضعه على النار لتشتعل أكثر وأكثر، وتحدث حريقًا هائلا.

* * * *

لا تُضحك القراء عليك

ستظل تلك الكلمات التي حدثني بها مدربي في فن كتابة المقال، حكمة خالدة لا يمكن أبدًا أن أنساها أو أتغافل عنها، مهما طال الزمان وتمددت الأيام، حينما قال لنا في دورته:

(اتعب على مقالك حتى لا تُضحك القراء عليك)

ولما سألناه عن معنى التعب المقصود قال: أن تذاكر وتتحقق وتتصفح وتراجع وتبحث عن المعلومات اللازمة، حتى تصقل مقالك فيصير قويًا دسمًا هادفًا معبرًا مفيدًا صادقًا.

ومن يومها وأنا لا أكتب مقالا، إلا وأحاول التحقق من كل شيء فيه، وأغرق نفسي في البحث، حتى أجمع فيه ما يصقله ويجلب معه احترام القارئ وتقديره، وهو يشعر أنه يستفيد ويضيف إلى معارفه كل يوم شيئًا جديدًا، ويجنبني ضحكه وسخريته.

وربما أحيانًا أذكر بعض المعلومات والاستشهادات والدلائل، دون الرجوع إلى مصدرها، فيتوهم بعض القراء المشاغبين أنني لا أعرف مصدرها ولا من أين نبعت، فيبادر بسؤاله ظنًا منه أنني سأقع في دائرة الإحراج، ولكنه لا يلبث إلا قليلا حتى آتيه بالمصدر المطلوب الذي جاء منه هذا الاستشهاد أو ذاك الدليل.

كل هذا بفضل ذلك المدرب الذي عرفنا هذه الحكمة، ورهبنا من نتائجها المخيفة، وهي سخرية الناس وضحكهم على الكاتب، وفقدانهم لمصداقيته.

شيء كبير ومُحبط يصيب صاحب القلم باليأس العنيف، حينما يضحك عليك قارئ، أو يتندر بجهلك وقلة معرفتك، وربما يضيف إليك ما خفي عنك، فذلك مقبول ومتاح، لأن العلم ليس له كبير، أما أن يُخطئك ويبرز جهلك وتقصيرك في المعرفة والبحث والدقة، فذلك مالا يطاق، وكذلك أيضًا قد تكون هناك مسائل معقدة في العلم، لا يدرك المرء غورها، ولكنه يتحدث عنها ويخطئ، ويأتي هناك من يلفته إلى هذا الخطأ، فهذا أيضًا له عذره المقبول لوعورة المسألة، وخفاء دقائقها على أولي الألباب، لكن أن تكون أمور بديهية، وثوابت معلومة، وتتجنى عليها أو تولغ فيها بالغلط والخطأ، فهنا لا عذر لك، حين تستحق العقاب الكبير، الذي نبه عليه مدربنا، وهو ضحك القارئ عليك.

بل المصيبة الكبرى لهؤلاء الذين يجعلون من أنفسهم قادة التنوير ودعاة التحضر، وهم يوغلون في العداء لدينهم وملتهم وتراثهم، ويهاجمون ثوابته، ويحطون من قدر رموزه، فتراهم يهرفون بما لا يعرفون، ويتأولون نصوص الدين عن جهل كبير، ويقرؤون في كتبه وهم يتوقون للشبهات، بلا

دراية أو فهم، بل يأتي بعضهم ليجتزئ النصوص، ولم يتابع شطرها الثاني، الذي يرد ما تريب منه واستهواه في النصف الأول على طريقة (ولا تقربوا الصلاة)، وهكذا يغطون في جهل عميق، وضلال سحيق، ولو أنهم كلفوا أنفسهم السؤال والاستفسار، لانجلى لهم الحق، وتبين لهم مالم يكونوا يفقهون.

ونأسف كثيرًا لتمادي كثير من هؤلاء في طريقهم، لأن صوتهم وأقلامهم تجد لها من يروج إفكها في الصحف والفضائيات، بل نأسف أكثر، لأنهم في أمة لا تقرأ، ولا تعرف حياة البحث، ومن ثم يسهل خداع الناس وتشكيكهم في دينهم وثوابتهم، مستغلين ضعف الصوت الإسلامي ومنابره التي لا تقاوم هذا التضليل، ولا تشغل صوتها به.

وإذا أردت أيها القارئ أن ترى نموذجًا تضحك عليه من كاتب له اسم رنان، أو حضور مكين، ويُعد نفسه من قادة التنوير، ودعاة العقل والتحرر والفكر والمعرفة، فلا يسعنا إلا أن نذكرك بهذه الحادثة، التي جرت بين المفكر الكبير دكتور محمد عمارة والكاتب العلماني حسين أحمد أمين، حينما تناول الثاني حديثا مبتورًا عن الصحابي الجليل سعد ابن أبي وقاص، فانتقص من قدره، وحط من مكانته، وشوه صورته، وهو من هو سبقًا وبلاء وجهادًا، بل من العشرة المبشرين بالجنة، وتعده الدنيا من أعظم الفاتحين والقادة

العسكريين حين كتب الله علي يديه زوال دولة الفرس، التي لم يقو عليها أحد على مر التاريخ حتى الإسكندر الأكبر نفسه، لم يستطع أن يقهر عاصمتهم المدائن التي تهاوت خائرة تحت ضربات سعد وسيفه وخيله وجيشه، لقد حوله حسين أمين، إلى رجل لا يعدل إذا قضى، ولا إذا أقسم بين الناس! بل جعله أيضا لا يحسن الصلاة، ثم جعل مرجعه وعنوانه في ذلك حديثًا منقولا برواياته وعنعناته، ليقول لنا: هذا هو سعد، وهذا هو الرمز وهؤلاء هم الصحابة!ومن تراثكم، وليس من كلام مستشرق أو متغرب يتجنى عليكم.

وكان هذا الحديث الذي ساقه للناس، حتى يفسد في تصوراتهم ووجدانهم، صورة صحابي من أعظم الصحابة، حيث قال: عن جابر بن سمرة: شكا أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب فقالوا: إنه لا يحسن أن يصلي ، فبعث عمر رجالا يسألون عنه بالكوفة فقيل لهم: أما إذا نشدتمونا بالله، فإن سعدًا لا يعدل في القضية، ولا يقسم بالسوية، ولا يسير بالسرية" وأغلق الأقواس وانتهى الحديث الذي يقدم للمسلمين أسوأ صورة، وأسوأ شهادة قدمها أهل الكوفة وأدلوا بها في حق صحابي من كبار الصحابة، لقد كتب النص دون أن يُثبت أي مرجع حتى يصعب على الباحثين التحقق من الأمر، إلى أن لقيه الدكتور عمارة في مكتبة الشروق، وسأله عن المرجع الذي جاء منه بهذا النص فقال له: طبقات ابن سعد، ولما رجع عمارة إلى مكتبته، قلب في الطبقات عن كل ما يخص سعدًا فلم يجد فيها

شيئًا، ولكن الحمية لم تدع له سبيلا إلى النوم، فظل يبحث في فهارس الأحاديث - وكان ذلك قبل ظهور الانترنت وصفحاته البحثية، التي تسهل الوصول إلى أي شيء- حتى وجد النص عند الشيخين وفي موطأ مالك ومسند أحمد، وكانت المفاجأة المدوية المذهلة، بل كانت الفجيعة كما يقول الدكتور عمارة، في أمانة وعدالة حسين أحمد أمين، حينما كان النص الحقيقي شيء آخر غير الذي أورده واقتص واجتزأ منه ما يحمل على الشبهة، ويبعث على النقيصة، وكان الحديث الكامل على هذا النحو، عن جابر بن سمرة، رضي الله عنهما، قال: شكا أهل الكوفة سعدًا، يعني: ابن أبي وقاص رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعزله واستعمل عليهم عمارًا، فشكوا، حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي .

فقال: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أخرم عنها أصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين، وأخف في الأخريين، قال: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق، وأرسل معه رجلًا - أو رجالًا - إلى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة، فلم يدع مسجدًا إلا سأل عنه، ويثنون معروفًا، حتى دخل مسجدًا لبني عبس، فقام رجل منهم، يقال له أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة، فقال: أما إذ نشدتنا فإن سعدًا كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث:

اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا، قام رياء، وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن، وكان بعد ذلك إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد.

قال عبد الملك بن عمير الراوي عن جابر بن سمرة: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن.[1]

ويبقى السؤال الآن هل كان حسين أمين جاهلا فعلا بالنص؟ أم أنه تعمد التضليل والتلبيس مستغلا جهل الناس؟

يقول الدكتور عمارة: "حالة من الفسوق الفكري قدمها أمين، ليهدم رموز الإسلام، وليهدم أبطال حضارته، وليجرد الأمة من سلاحها وهي تخوض حربًا ضروسًا على العديد من الجبهات!"

لكنني مع استنتاج الدكتور عمارة لمحاولة أمين وتفسيره الدقيق لجنايته، والذي أوافقه فيه بالطبع، ولا أنسى أهم شيء وهو أن تعرية عمارة لفعلة صاحبنا أضحكتني عليه وأضحكت كل من قرؤوا سقطته، وهي الحكمة التي علمني إياها أستاذي في فن كتابة المقال.

---

١ – متفق عليه

فليحذر كل كاتب أن يضحك عليه القارئ، لأنه شعور مر، وإحساس كئيب.

بعض الكتاب يعتبر أن كتابة مقال في الصحف، شيء مهول وكبير، ومسؤولية ضخمة جدًا لأنها شيء عام يراها كل الناس، ويُعرض ما فيها على عقولهم وأفهامهم، ومن ثم لابد لهذا المعروض أن يكون القمة في المصداقية والتحقيق، وهؤلاء الناس معتدلون جدًا ومدركون لحجم هذه المسؤولية، مسؤولية الكلمة وأمانتها.

ولكننا وللأسف وأمام هذا الصنف الراقي الواعي المُقدر لمكانة الكلمة، نجد أناسًا آخرين قمة في الاستخفاف بقيمة الكلمة، وقدر الصحيفة، فنراهم يكتبون الزور والخرف والهذيان، بل لا يمنعهم هذا الإفك وهذه الجرأة الوقحة، أن يخرجوا في القنوات التلفزيونية، ويواجهوا الناس بهذا الكذب وهذا التخريف.

إننا صرنا في زمن لا يحترم كثيرٌ من الكتاب وأصحاب الرأي عقولَ الناس، ومن العجيب أنك تجد لديهم ثقة غريبة مليئة بالثبات والقوة، وكأنهم على حق وصدق، ولا يستحون ولا يتحرجون أن يكشفهم الناس أو يقفون على زورهم.

وصدق الفاروق في قوله: (اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر)

كتب أحد القضاة مرة مقالا في الأهرام، زعم فيه أنه زار إحدى المحاكم في سويسرا، فذهب في التاسعة صباحًا فلم يجد أحدًا غير رجل يقوم بكنس المحكمة وتنظيفها، فسأله: متى تبدأ المحكمة؟ فقال الرجل: إن المحكمة فتحت من الساعة الثامنة، لكن لا يوجد متقاضون، فسأله: وأين القاضي لألقاه؟ فأنا رئيس محكمة النقض في مصر. فقال الرجل: أنا القاضي، فاستولت الدهشة التامة على رئيس محكمة النقض المصري، وتلعثم ولم يدر ما يقول! وأردف القاضي السويسري المزعوم قائلا: نحن نفتح المحاكم في الثامنة صباحًا وننتظر أن يحضر متقاضون، وفي الغالب لا يحضر أحد، لأنه لا توجد منازعات إلا في النادر، وفي الساعة العاشرة أغلق المحكمة وأعود إلى منزلي.

وهنا برز لهذا القاضي الكاتب، أحد المفكرين ممن زاروا سويسرا وأقاموا بها ويعرفونها حق المعرفة، فقال معلقا: يالها من سذاجة وغفلة، ألا يعلم هذا الرجل أن القضايا تعرض على المحاكم وفقًا لمواعيد محددة يعرفها المتقاضون والمحامون الموكلون في هذه القضايا؟ ألا يعلم أن للقاضي في سويسرا كرامته ومكانته؟ فكيف يعقل أن يقوم بتنظيف المحكمة؟! وهل المحكمة السويسرية مثل دار العمدة في القرية المصرية، يأتيها من له مظلمة؟!

إما أن يكون هذا القاضي المصري الكبير قد ذهب إلى مكتب موثق عقود، وإما أنه لم يذهب لأي محكمة، وعاد لمصر وأراد أن يتباهى بما رآه من

عجائب القضاء في سويسرا فاخترع هذه الحكاية الدالة على منتهى الغفلة والسذاجة.

كلا يا حضرة القاضي، إن القضايا التي تعرض على المحاكم في سويسرا عديدة جدًا، والقضاة فيها يشكون من كثرة المعروض منها في الرول، والقضاء هناك بطيء لهذا السبب، وقد يستغرق نظر القضية الواحدة العادية عدة سنوات، فما بالك بالقضايا المعقدة؟! والمحامون عديدون جدا، والقضايا وفيرة جدًا.

والإنسان يتعجب من هذه النوعية من فسدة الضمائر، التي تتوقع وتظن أن أحدًا لن يقف على باطلها وإفكها، وأن ما قاموا به وتوفر لهم من امتياز في الدنيا، لن يدركه أحد ومن ثم فليكذبوا وليفتروا مطمئنين.

إن قصة الكاتب الصادق، ليست في أنه يحترم عقول الناس فقط، ولا في كونه يكتب بصدق حتى يثق فيه الناس، ولكن المشكلة الحقيقية، أن هذا الكاتب هو الذي يبني بما يكتب وعي الأمة وثقافتها التي توجد لها مكانًا بين الأمم، فما أدراك إن كانت هذه الثقافة وهذه المعارف، مبنية على الكذب والإفك والزور؟!

احترموا أقلامكم ابتداء قبل أن تحترموا عقول الناس.

* * * *

حراب الندم

أحيانًا يدفعنا الحماس والعاطفة الطائشة، لكتابة سطور نندم على كتابتها طول الحياة، ويمنى المرء ساعتها لو أن يديه قد شلت قبل أن يسطر حرفًا واحدًا من كلماتها التي مثلت سهامًا أصابت قلوب أناس يعز عليه إحزانهم وجرح نفوسهم.

ويتمنى مع صبيحة كل يوم لو أن هؤلاء الذين أساء إليهم وسطر ضدهم سطور العدوان صفحوا عنه، ونسوا زلته وعفوا عن غشمه وتهوره، وهناك أناس يصفحون ويسامحون وهناك غيرهم لا يغفرون ولا ينسون ويعبر عنهم الشاعر بقوله:

جراحات السنان لها التئام ** ولا يلتام ما جرح اللسان

وإذا كنا نحذر من زلات اللسان، فإن زلات القلم أشد إيلامًا لأنها خالدة باقية لا يمحيها الدهر، ولا تنساها الأذهان وترويها الأجيال، وإذا كان الذين تؤذيهم بقلمك لا يستطيعون نسيان إيلامك لهم، فإنك كذلك لا تستطيع أن تنسى إيلامك لهم، ولا تستطيع مشاعرك أن تفلت من وخذات الندم، إن الغضب والانسياق وراء العاطفة والانتصار للنفس ينسي الإنسان أخلاقه، ويجعله كما لو أنه ثور هائج يريد نطاح من أمامه، ومن هنا قال لنا القائلون والمعلمون في فن الكتابة: لابد أن تلجموا أقلامكم كما تلجمون

جوادكم، حتى لا يشطح بكم أو يجمح إلى حيث لا تحبون، فإن سحر العاطفة والانجرار وراء ندائها، يخلف بحورا من الندم، لا تستطيع اجتيازها والخروج منها.

أحيانا تعتريني ككاتب لحظات من الغضب والضيق والرغبة في العدوان والغارة على من سببوا لي هذا الضيق وتورطوا في هذا الإغضاب.

وفي هذا التوتر أتخيل قلمي في يدي وقد صار مدفعًا رشاشًا، يريد أن يفتك بكل من نال من شخصي- أو اعترض كرامتي بل صار كالحسام المجنون، الذي يريد أن يُمزق كل من حوله، فأطعن به تارة وأجرح به تارة أخرى، لأنتصر لنفسي- وأشفي مرارتها، بما توفر لي من صقل البيان وثقل اللفظ والعبارة.

وهكذا وفي هذه اللحظات العصيبة تتبلد الحكمة، ويتجمد العقل، ليترك قيادة النفس للعاطفة الهوجاء، والوجدان المشتعل، ويكون المرء في ظل هذا التخبط في حاجة ماسة للناصحين المرشدين، الذين يحاولون إيقاظ عقله من غفوته، وإعادة الحكمة في عروقه، بعد أن بخرها لهيب الغضب، فيكبحون جماح قلمه الثائر، ومداده المضطرب، حتى لا تفسد حياته ويكثر أعداؤه.

بل لا أعلم لماذا وأنا في ظل هذا الأتون المستعر، والجموح الشاطح، لا أتذكر ذلك الكاتب الهادئ الخلوق الرسالي المؤدب المهذب (بدر محمد بدر) الذي عملت معه وتعلمت منه، والذي كان أول ما لمحت من سماته حكمته ورزانته وحلمه وصفحه، إن بدرًا كان قمة في الأدب والذوق، وكان لا ينهج في إنصاف الحق إلا الأسلوب الرصين الحصيف، الذي يجمع ولا يفرق، ويقنع ولا يهيج، فما رأيته غاضًا إلا كان ذا حلم، ولا ثائرًا إلا كان متعقلًا عفيفًا، عن كل ما يجلب العداوة ويشعر الكاتب فيما بعد بالندم الحارق مما سطر من حروف الإيذاء وكلمات التجريح.

ولقد كان عميد الأدب العربي واحدًا من هؤلاء الذين عضوا أصابع الندم، حينما أخذته الحماسة ووقع في شرك التطاول، وانتهج قلمه منهج العدوان، لقد كان شابًا يتفجر حماسة واندفاعًا، وكان مشاكسًا متمردًا يريد أن يضع لاسمه مكانًا بين الكبار، ولا ضير أن تكون هذه المكانة قد قامت وشيدت دعائمها على الاستهزاء والسب والتجريح والانتقاص ممن ينتقدهم، ورحم الله الشيخ عبدالعزيز جاويش فهو الذي جرأه على ذلك، ونمى في نفسه هذه الروح العدائية، بل ربما كان يجد منه الإغراء والتحريض لذلك والحث عليه والتمادي في الإساءة لحد بعيد، ثم إنه في مقام آخر يحمّل الشيخ جاويش أسباب هذا الإسفاف ونتائجه.

لقد كتب يقول: "ولم ينسَ الفتى قط كلمة كتبها فأورثته ألمًا لاذعًا وحزنًا مُمِضًّا، واضطرته إلى أن يسعى معتذرًا متوسِّلًا للصديق الذي كُتبت فيه هذه الكلمة، كان ذلك حين اختصم الناس حول سؤال من أسئلة الامتحان في الشهادة الثانوية في الأدب، فكان ممن شارك في هذه الخصومة زميل أزهري من زملائه، وكان هذا الزميل ينتمي إلى أسرة كبيرة، ويعدُّ انتماءه إليها من مفاخره، ولكنه لم يكن من هذه الأسرة إلا لأن أباه كان من عتقائها، فلما ردَّ صاحبنا عليه نسبَه إلى الأسرة، وبيَّن طبيعة انتسابه إليها لم يُرد إيذاء زميله، وإنما أعجبه هذا التعريض فاستجاب له، ولم يُراجع نفسه فيه إلا حين قرأه مطبوعًا في الصحيفة، ولامه فيه صاحباه، هنالك أسقِطَ في يده ولم يَرضَ زميله إلى بعد جهدٍ وعناء، وقد رضي الزميل وصفح، ولكن الفتى لم ينسَ هذا الإثم قط، وما أكثر ما ازدرى نفسه، وحاول أن يأخذها بألا تضع كلمة في مقال، حتى تفكر وتقدِّر وتتجنب الإيذاء ما وجدت إلى ذلك سبيلًا"

ثم يبدو أنه لم يتعلم الدرس حين كانت السقطة الكبرى، التي ندم عليها ندمًا كبيرًا، فيعلن أن استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها لم ينقطع كلما ذكرها أو ذُكرت له، وكان موضوعها « نظراتٌ في النظراتِ» ويقصد بها نقد نظرات المنفلوطي رحمه الله، حيث قرأ الفصول الأولى منها راضيًا عنها، مُعجبًا بها، ثم لم يلبث أن سئمها وانصرف عنها، ولكنه لم يكد يراها مجموعة

في كتاب، حتى ضاق بها أشدَّ الضيق، وكتب يعيبها وينتقصها، ويفرح الشيخ جاويش بالمقال أيما فرح، ودعاه لمزيد منها وشاكلتها وألحَّ في التحريض، حتى ألقى في رُوعه ألا يدع فصلًا من فصول المنفلوطي، إلا اختصه بفصل من النقد، وكان طه حسين كما يقول: قديم المذهب في الأدب، لا ينظر منه إلا إلى اللفظ، ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة، فكان عيب المنفلوطي عنده، أنه يُخطئ في اللغة ويضع الألفاظ في غير مواضعها، ويصطنع ألفاظًا لم تثبت في«القاموس المحيط» ولا في «لسان العرب» وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف، إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة.

ولم ينسَ طه أبدًا مقالًا دفعه ذات يوم للشيخ جاويش، فلم يكد يقرأ أوله حتى طرب له وأبى إلا أن يقرأه على من يحضرون مجلسه، وابتهج طه بما يسمع من ثناء الشيخ عليه، ودب في نفسه أنه أصبح كاتبًا ممتازًا، وكان هذا المقال هو الذي جرح فيه المنفلوطي وكان من مطلعه "عِمْ صباحًا أو مساءً، واشرب هواءً أو ماء، واستأجر من تشاء لما تشاء فقد وضح الحق وبرح الخفاء» وهو المقال الذي إذا ذكره طه فيما بعد، حتى طأطأ الرأس خجلًا وحرجًا، وسأل الله أن يتيح له التكفير عن ذنبه ذاك العظيم.

وتدور الأيام دورتها، وتعبر العقود بحور الزمن، وتأتي الحوادث وكأنها سلف ودين، فيتطاول الصغار على شخص الأديب الكبير، كما تطاول

هو على من كانوا أكبر منه، وإذا بهم يندمون على تطاولهم تمامًا كما ندم هو بالأمس، ولكنهم أتيح لهم ما لم يتح له، حينما استطاعوا أن ينفثوا عما يموج في صدورهم، من غليان الندم والشعور بالذنب فذهبوا إليه معتذرين نادمين.

* * * *

خديعة القلم

يُعد القلم من أكثر الأساليب الخادعة في حياتنا، والتي تعطينا في أكثر الأحايين تصورًا مغلوطًا أو ترسم في مخايلنا وأذهاننا شكلا يخالف حقيقة صاحبه.

وربما لا يكون العيب في الكاتب، وإنما في الناس والقراء، الذين يتصورون أن القلم وصاحبه يتحركان من معين واحد، وأخرجتهما بيئة وأخلاق واحدة.

بينما الوعي والفهم بطبائع الناس وأحوالهم، يؤكدان ألا ننخدع بالمظهر والكلام، حتى نرى الأفعال.

بل يتعدى استعداد كثير من نفسيات الناس، للخداع بأكثر من هذا، فما عليك إلا أن تضع صورة جميلة على صفحتك الزرقاء (الفيسبوك) حتى يتخيل الناس أنها تعكس جمال نفسك، فيُقبلون عليك، تفعل هذا حتى كثير من الفتيات، اللاتي ربما لم يكن لهن حظ من الجمال، بقدر ما تعكسه صورتهن اللاتي صدرن بها صفحاتهن، فتُقبل عليها وكأنك مقبل على جولييت أو مارلين مونرو.

وهكذا عقول الناس وأوهام ضمائرهم، من أسرع الأشياء التي يمكن لك أن تخدعها بسهولة ببعض المظاهر.

أنا مثلا حينما تقرؤون لي، فتتخيلون أو يخيل إليكم قلمي أنني مصلح من المصلحين، أو أديبًا من الأدباء الذين نذروًا حياتهم لنصرة الحق والفضيلة، بينما تغيب عنكم وأنتم في هذا الوهم الكبير صفحة عارمة وشنيعة من الأخطاء والذنوب والخطايا التي لا يسلم منها إنسان، ولكنها أوهام الناس وأحلامهم، بل عقولهم التي يسهل جدًا خداعها.

وأنا دومًا في هذا الباب أقرر أن الخطأ دومًا لا يكون من جانب الكاتب والمؤلف، بقدر ما يكون أكثر نصيبه في حق الناس أنفسهم، وعقولهم التي لا ترى غير السمو، ولا تستطيع أن تستوعب غير هذه الصورة المثالية للكاتب أو المبدع.

حتى أنك لو جئت لتخبرهم بأن هذا الكاتب صاحب القلم الساحر، الذي يدافع عن القيم والفضيلة، أو يكتب في الدين وينافح عنه له حياته الخاصة، التي ربما تتساهل كثيرًا في أشياء من أمور الحياة التي لا يتخيلونها، فإنهم لا يصدقون، لأن خديعة القلم عظيمة الأثر قوية التضليل.

منذ فترة كتبت عن الرافعي والعقاد وشاكر، وهم أشخاص لهم باع عظيم في خدمة الدين والدفاع عن قضاياه، حتى تخيلهم الناس من أئمة الهدى والتقى، وأن رتبتهم الدينية تساوي تمامًا رتبة ابن تيمية في تقواه وهدايته، فلم يستوعب الكثيرون هذا.. لا لأن العقاد والرافعي قاما

بخداعهم، ولكن لأن عقولهم هي التي تصورت هذا، حينما خدعها القلم أو أوحى لها بهذا التكوين.

أما الرجلان فلم تكن حياتهما إلا حياة طبيعية جدًا، ومن أبرزها أنهم كانوا يحبون ويعشقون ويتغزلون.

انظر هنا إلى الأديب السوري الكبير معروف الأرناؤوط (١٨٩٢-١٩٤٨)، وهو أديب سوري من أصل ألباني، عاش في دمشق ووضع عددًا من الروايات الإسلامية الشهيرة، أبرزها رواية "سيد قُريش" التي أدخلته مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٠م، وهو صاحب جريدة فتى العرب ومؤسسها، التي صدرت في دمشق من عام ١٩٢٠م.

هذا الأديب اللامع كتب عددًا من الروايات الإسلامية، غير روايته سيد قريش، مثل "عمر بن الخطاب" بأربعة أجزاء وطارق بن زياد وفاطمة البتول، وتحدثت عن حياة الحسين بن علي.

ولأجل هذه الروايات الإسلامية، تصور الناس أن صاحب هذا القلم، يماثل ابن كثير أو ابن القيم، وأنه قامة إسلامية وعلمًا من أعلام الهدى والإيمان، بينما الرجل طبيعيًا جدًا جدًا، حتى أن الشيخ علي الطنطاوي وصفه مرة بقوله: "تقرأ له فينقلك إلى دنيا غير دنيا الناس، وينقلك إلى عالم ما فيه إلا الحب والجمال عالم القلب، وكان إذا غضب نطق بأشنع السباب وأبشع الشتائم، وإذا غضب كان هجّاء كأخبث الهجائين لسانا!"

وكان لكثرة ما يكتب في الشؤون الإسلامية، يحسبه الناس من بعيد شيخًا صالحًا عابدًا، ويتصورونه متعممًا ملتحيًا، مع أنه كان أول من حلق شاربيه في دمشق، وقد زارة مرة جماعة من علماء الهند وكان يدخن في النرجيلة فقالو له:

أين مولانا الشيخ معروف؟

وهنا خاف أن يقول لهم: أنا هو فيكسروا النرجيلة على رأسه، فقال لهم: سيأتي قريبًا، فتفضلوا وقعدوا، ورفع النرجيلة من أمامه، وجلس يترقب الطريق، ثم لمح الشيخ أديب تقي الدين نقيب الأشراف قادمًا من بعيد فقال لهم: ها هو ذا، وأشار إليه ففهم، ودخل بهيئته وهيبته وجبته، فقاموا إليه يقبلون يده ورأسه.

وانتهى الموقف، ومن هنا نرى أن كل الناس القريبة من معروف يعرفونه ويقفون على حقيقته العادية الطبيعية، لكنهم فقط وحدهم من خدعوا فيه أولئك البعيدون عنه، خدعوا لا لأنه خدعهم، ولكن لأن قلمه هو من خدعهم وصور لهم صورة هلامية، ليست من الواقع في شيء.

وكما يخدع القلم يخدع الغلاف، أو تخدعنا صورة أخرى من صور الأقلام أو حالاتها.

فشيء ممل لو أعجبك غلاف رواية وعنوانها وجذبك لاقتنائها متوقعا أن خلف هذه المظاهر المثيرة أحداثًا وسطورًا ثرية مشوقة، ثم تكون المفاجأة الصادمة أنها رواية سخيفة هابطة تافهة مملة، والأدهى في الموضوع حينما تكون هذه الرواية لكاتب مشهور، وأقيمت حولها وحوله هالة إعلامية كبيرة مدوية، فقيل فيها وعنها بأنها أبدع ما كتب، وأنها لا مثيل لها في جمالها وأدبها وأحداثها وتصويرها وتشويقها، فما إن تقرأها حتى تجدها سببا مباشرا لغثيان مزمن وصداع مستمر.

والعجيب في الأمر أن هناك كتابًا وروائيين كبارًا عالميين وأصحاب شهرة، وربما حصل أحدهم على نوبل، ثم تصيبك بعض رواياته بالإعياء الشديد، إن بعض الأدباء يتعرض الإبداع في حياته إلى عملية مد وجزر، مرة يبدع، ومرة أخرى يكلف قلمه فوق طاقته، أو بمعنى آخر يتعرض إبداعه لأعراض الشيخوخة بعد مرحلة طويلة كان فيها في قمة شبابه، وهكذا لا تستمر عجلة الإبداع على وتيرة واحدة، فهي تتعرض لضمور في كثير من الأحيان، ويصبح العقل عاجزًا عن اختلاق الإبداع والغوص في عمق الخيال.

وأمام هذا الاستنتاج تجري أحيانا عملية خداع إعلامي لبعض الروايات والكتابات الفقيرة لمادة التشويق والإثارة والأدب الفريد، ولكنها

تظل شيئا عظيما لأن الكاتب يشغل منصبًا مرموقًا، أو كتب فيما سبق شيئا قيما أعجب الجمهور، فإذا ما عبرت عن رأيك الذي يصور انطباعك الرديء عن الرواية السخيفة، هاجت الدنيا عليك وماجت واتهموك بالجهل والغباء وعدم الفهم وجفاف التذوق، ولكي أنجو من هذا الاتهام، فلا داعي لذكر بعض النماذج للروايات المملة التي كتبها مشاهير كبار، ولكني على يقين أن ما أتحدث عنه وأشعر به وجده كثيرون من أصحاب الذوق الفاقهين.

* * * *

الأقلام المُلثمة

لا شك أنك تعلم جليًا أن الكاتب فارس يخوض المعارك، تمامًا كما يخوضها ذلك الفارس القوي الشجاع، وأنه يتخذ من قلمه سيفًا يُعارك به هذه الملاحم التي يكون المداد فيها هو الدم المسكوب، ولكن الذي يفرق أحيانًا بين فارس القلم وفارس السيف، أن فارس القلم يحتاج في كثيرٍ من الأوقات أن يُخفي وجهه باللثام حتى لا ينكشف أمره، حينما يريد أن ينطق بشيء يخالف إرادة الآخرين.

في إحدى الدورات التدريبية التي حضرتها لتعلم فنون كتابة المقال، ذكر لنا المدرب: أن أجهزة الأمن والمخابرات في كثير من الدول، لديها أقسام خاصة لدراسة أساليب الكتاب والمفكرين والصحفيين، وطرق كتابتهم، ومفرداتهم التي يستخدمونها، وأحوالهم حينما ينفعلون، وتناولهم حينما يتأثرون، حتى إذا لجأ بعضهم لنشر مقال ينتقد فيه سياسة الأنظمة الحاكمة غير ممهور بتوقيعه، فإنهم لا يعييهم معرفة كاتبة، ولا مؤلف سطوره، يعرفونه من ألفاظه وتراكيبه التي يكثر من استخدامها، والتي تعد نمطًا خاصًا به، وسمتًا يميزه عن غيره من الكتاب.

كما أخبرنا هذا المدرب: أن أحد الكتاب كتب مقالًا ينتقد فيه الحكومة، في بعض إجراءاتها نقدًا لاذعًا، فتم استدعاؤه، وأخذوا يحققون

معه، حتى أذهلوه بالطريقة التي كشفوه بها، وكيف أنهم قدموا له بحثًا عميقًا بالألفاظ والتراكيب والأساليب التي يستخدمها دائما، ولا يستخدمها أحد غيره، والتي كانت دليلا على كشف هويته.

وأعتقد أن أسلوب الكاتب، يشابه تمامًا بنان الإنسان، أو ما نسميه بالبصمات، التي لا يمكن أبدًا أن يشابهه فيها إنسان، أو يقتبسها منه، أو ينتحلها عليه، اللهم إلا إذا كان عبقريًا فذا، لديه قدرة فائقة على التقليد والمحاكاة، لكنه ورغم هذه البراعة، لا يأتي بالنكهة الكاملة التامة، التي عهدها القراء في كاتبهم المشهور، وأسلوبه المميز.

وكان من أشهر المقلدين الذي تحاكى بهم التاريخ هو الشيخ حسن البنا، فبعد أن مات الإمام رشيد رضا صاحب المنار، بحث الورثة عمن يخلف الإمام في مقالاته في تفسير القرآن، وإدارة المجلة برمتها، وكانت المنار وقتها ملء السمع والبصر، ويتهافت عليها العالم الاسلامي كله، من أقصاه إلى أقصاه.. وما إن بدأ حسن البنا يكتب في التفسير خلفًا للإمام رشيد رضا، حتى تقمص أسلوبه وطريقته وتراكيبه وروحه، وصار الذين يقرؤون، يكادون يجزمون أن من كتب هذه الحلقات هو رشيد رضا نفسه، وأن المقالات الجديدة نسخة بالكربون، من طريقته في تناول التفسير.

ولعل هذه الأعمال الأمنية، من الوسائل العصرية المستحدثة، التي لم تكن تفطن إليها الأجيال الماضية، ولم تعمد أنظمة الأمن لتطبيقها، فقد كان كثير من الكتاب القدامى، يلجؤون لمهاجمة الحكومة والأحزاب بأسماء مستعارة، أو حروف مختصرة، حتى ينجوا بأنفسهم من معاقبة الأمن وتحقيق النيابة، وترصد القضاء، كما كان يفعل الأستاذ محمد التابعي رحمه الله، الذي كان دومًا ما يستخدم اسم (حندس) وكذلك فعل عمر فروخ حينما كان يكتب باسم صريع أو صريع الغواني، وكذلك فعل العقاد وغيرهم كثير.

ولا يعد هذا جبنا أو خوفًا بقدر ما هو ذكاء وحنكة، حين يستخدم الكاتب أيسر الطرق لإيصال الحق، وكشف الزيف بطريق لا خسائر فيها، حتى يظل للحق أقلام تحميه.

وهو نفس ما فعله المنفلوطي حينما كتب أول قصائده في فجر شبابه يُهاجم فيها الإنجليز الذين يجثمون على صدر وطنه، تحت عنوان «تحرير مصر» عام ١٨٩٧، قال فيها:

ألا راية للعدل في مصر تخفق ** لعل مساعي دولة الظلم تخفق

ألا صدمة للجور توقف سيره ** فيجبر ذاك الكسر، والفتق يرتق

ذهلنا فما ندري والي أمورنا ** بلندن أم في مصر كيف نفرق؟

لقيت القصيدة حفاوة كبيرة، وانتشرت ورددها المصريون في كل مكان، وعرفوا صاحبها وتحدثوا باسمه، رغم أنه وقعها باسم مجهول وهو «عدو الاحتلال»

وقد تعجب أن شوقي العظيم أمير الشعراء، والذي من المعروف أنه شاعر العرش والبلاط، كان يلجأ لهذا الأسلوب المتخفي، حينما يريد أن يكتب أشعارًا تنتقد الإنجليز ولا يقرها الخديوي، وكم كانت له مواقفه الوطنية المشهودة، التي ينحاز فيها لضمير الأمة وآلام الجماهير، فكان ينشر أبياته العاصفة التي كان الجميع يجزم أنها لشوقي، لكن أحدًا لا يقدر على الإشارة إليه أو توجيه التهمة لشخصه، لأنها غير ممهورة باسمه، حتى جاء الباحث العملاق محمد صبري، فعكف على تراث شوقي المجهول، مدة خمس سنوات واستخرجه من الصحف، وجمعه في مصنف مبهر تحت عنوان الشوقيات المجهولة، جمع فيها كثيرًا من الشعر الوطني، الذي لم يكن يقوى أن ينسبه لنفسه، حتى لا يعرض نفسه لغضب الإنجليز والسراي، كما كان ضمن هذه الأشعار أبيات وقصائد لم يرغب شوقي في نشرها، ربما لأنها أحيانًا كانت تجافي الروح الوطنية، وقد أسقطها شوقي حينما أعاد طباعة أشعاره، وخاصة ما يتعلق بمدائحه لتوفيق وعباس، وما يتصل بها في هجائه لعرابي في العديد من القصائد.. وقصائد وأبيات عديدة أخرى، كان يوقع تحتها بتوقيع رمزي مثل: (السائح) و(ش) و(أنا) و(النديم) و(شرم برم).

وهكذا يلجأ القلم الحر أحيانا للتلثم، حتى لا يعرفه أحد فينال من حدته، أو يخفق من قوته، أو يحاول قصف عزيمته.

* * * *

الأقلام حينما تتافق وتناقض

وليحذر الكاتب أن تمتلئ حياته بالتناقض فيما يكتب ويعبر، لأنه إن نسي، فإن القراء لا ينسون، وسرعان ما يفقدون الثقة في قلمه، والتناقض أمر قد تراه في أقلام بعض الكتاب الكبار، فهذا العقاد كان التناقض ضاربًا بجذوره في دهاليز مواقفه وحياته، نتيجة لأحداثٍ حياتيه اهتزت لها نفسه، وجعلت منه مضطربًا مترددًا يخالف قوله فعله في بعض المواقف، فمرة يمدح الوفد وينافح عنه، ويجعل منه الوطن والعقيدة وروح الحياة، وحينما يفصل منه بعد عشر سنوات من مكوثه فيه، يهجم عليه وينتقد سياساته ورجاله وزعماءه، ومرة يرفع سعد زغلول لمرتبة الأنبياء والزعماء الخالدين، ويؤلف عنه كتابًا يمدحه ويُعلي مقامه، ثم تدب فيه الغيرة حينما يمتدح سعدٌ كتابَ خصمِه الرافعي بقوله: كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم. فإذا بالعقاد يغضب ويغار، ويسألونه مستنكرين، أرأيك أرقى من رأي سعد؟ فإذا به يقول: وما سعد؟ وما رأي سعد؟!

مرة يُقبل على الإخوان ويتمنى لقاء مرشدهم، ويصفه بأنه من بناة النهضة وزعماء الوطنية، ثم بعد ذلك يصفه بأن أصوله يهودية، ويُهاجم جماعته ويصفها بالخوان بدلا من الإخوان.. يعشق المرأة ويقدر الحب

والعواطف، ثم تراه لا يتزوج.. يهجو شوقي وينتقده إلى حد التدمير، ثم يمتدحه ويدافع عنه ويسجل له الصواب.

مرة يكون قاسيًا فظًا غليظًا في عباراته وهجومه وسخريته، ثم تراه يتأثر لطفل، وتهيج أحزانه ونفسه لو سمع شخصًا يتألم كما في كتابه عالم السدود والحدود.

مرة يُعلي خصمه الرافعي، ويصفه بأن لديه من أساليب العربية ما ليس لكتابها في أيامها الأول، ثم بعد ذلك ينعته بالمهزار الأصم، ويخطئه وربما يرميه بالجهل وقلة الفهم، أحيانًا هناك ظروف وأهواء وأغياظ وأحقاد تدفع الإنسان ليغير مبادئه ويبدل آراءه، لكن الكبار حقًا من صمدوا بثبات الرأي أمام ما يعترضهم من متغيرات.

بعض الخطباء والمتحدثين أو الكتاب والأدباء والمحررين، تأخذهم نشوة الخطاب، أو نشوة المداد، فيشطحون شطحة مدوية لا يغفرها الزمان، ولا تنساها الأيام، وقد نعذرهم في هذا، فالقلب والعقل حينما ينفعلان لشيء ويتأثران به، يدفعان اللسان لينطق بالعظائم التي تفوق الحال والخيال.

ولكن هذه الأهاويل التي نحاول أن نوجد فيها العذر لهؤلاء الشطاحين، قد نقبلها في أي شيء، لكننا لا يمكن أبدًا أن نغفر لهم شطحاتهم في الدين، الذي له ولنبيه ولكتابه القداسة العظمى، فحينما يريد أحدهم أن

ينافق رئيسًا أو ملكا ثم لا يجد من التشبيهات والصفات والمواقف إلا ما اختص به نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، فهذه جرأة وقحة وعمل منكر، بل تكون رزية وكبيرة، حينما يعطف المحدث أو الكاتب بحال النبوة المقدسة ليفضل عليها حال رئيسه وتصرف ملكه.

لقد كتب هيكل بعد نكسة ٦٧، بأن هدف الهزيمة هو كسر عبد الناصر، ولكن عبد الناصر لم ينكسر ومن ثم فالأمة كلها لم تهزم ولم تنكسر، يقول هذا القول المنافق، لينقذ زعيمه المهزوم المخذول من بلاء هزيمة تقتل النفوس الحرة لو تعرضت لمثلها، يقول هذا للدكتاتور المهزوم وعلى جبهة سيناء ذبح اليهود ٣٥.٠٠٠ ألف شهيد من أبناء مصر وجنودها الأبرار.

ولكننا مع هذا نعذر هيكل في قناعته أو نعذره في نفاقه، لكن الذي لا يمكن أن نعذره أبدًا ذلك الخطيب البائس في الجامع الأزهر، والذي خطب أمام الملك فؤاد يومًا وعلق على مقابلته لطه حسين وتكريمه له فقال: لقد قابل الأعمى فما عبس وما تولى، أي أن فؤاد أفضل من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذي عبس وتولى من ابن أم مكتوم، فثارت ثائرة وكيل الأزهر الشيخ محمد شاكر والد أبي فهر رحمهما الله تعالى، فقال في صحن الجامع بعد الصلاة: أيها الناس أعيدوا صلاتكم فقد كفر الإمام.

وهذا اللون من التملق والشطحات الكتابية أو القولية، هو الذي نرفضه ونعترض عليه، ونعده جرأة وقحة على الدين ومقام النبوة والمثل العليا الخالدة المقدسة.

وقد تتنوع الصورة فتجمع بين النفاق والتناقض، أو النفاق المتناقض. إن النفاق شيء قبيح، وأقبح منه أن يصدر من صاحب علم أو قلم، أو عمة من عمائم الدين، التي يفترض لها الاتزان والاستقامة والتقوى والاعتدال، والميل للحق على حساب كل شيء.

ومما يذكره التاريخ من مقولات السوء والنفاق، ما كتبه صاحب الرسالة الأديب الكبير أحمد حسن الزيات، تعليقًا على الوحدة بين مصر وسوريا حيث قال: إنها خير وأبقى من الوحدة التي بناها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ورغم صعوبة الموقف وصعوبة الظرف والزمان الذي حكم فيه طاغية ما كان يسمح لأحد أن يعارضه أو ينكر عليه، أو يعرض حتى بحاشيته ومن ينافقونه، فإن ذلك كله لم يمنع أسدًا من أسود الأزهر - وللأزهر أسود وضباع- أن يقف لهذا الشطحة المنافقة، ويردها رد الفرسان المغاوير الغيورين على النبوة والدين، وقف الشيخ (محمود عبد الوهاب فايد) -أحد علماء الأزهر الصادقين- ليضرب الزيات ضربات قاصمة، قلبت عليه تاريخه، وكشفت للدنيا نفاق مداده وتلون قلمه، ضربات أو كتابات وصفها

أحمد حسين بأنها كانت كتابة من نار تحرق الكافرين، وتتحدى الرئيس نفسه، ودخل بها فايد تاريخ الأحرار، ليكون واحدًا من شجعان الحق وفرسانه.

لم يكن هجوم فايد على الزيات لجرأته على مقام النبوة وحده، وإنما لأنه كان قلما منافقًا يعشق التملق والتلون والمداهنة والتصفيق للحاكم، فنشر نصين منافقين بين فيهما للجمهور معنى أن يكون الكاتب منافقًا، وأبشع صورة للكاتب حينما يكون متلونًا، يقول اليوم كلامًا، ثم لا يلبث إلا وينكره في الغد.

ففي أخريات أيام فاروق وقبل رحيله بشهرين، تحديدًا في ٢٥ مايو ١٩٥٢ في مجلة الأزهر، كتب الزيات يمدح فاروقًا مدحًا عظيمًا فكان مما وصفه به قوله: "بعطف صاحب الجلالة فاروق، ناصر الإسلام، ومؤيد العروبة، وحامي الأزهر، أعز الله نصره، وجمل بالعلوم والآداب عصره..."

ثم يأتي في عام ١٩٦٠م وفي نفس المجلة كتب يقول: "كان ملكًا على مصر قبل ٢٣ يوليو، وكان آية من آيات إبليس في الجرأة على دين الله، وعلى حرم الناس، بلغ من جرأته على الله أنه كان -كما حدثني أحد بطانته- إذا اضطرته رسوم الملك أن يشهد صلاة الجمعة، خرج إليها من المضجع الحرام من غير غسل ولا وضوء، وأداها من غير فاتحة ولا تشهد، وكان يقول: إن أخوف ما أخافه أن يغلبني الضحك وأنا أتابع الإمام في هذه الحركات

العجيبة!. وبلغ من جرأته على المحرمات، أنه كان يغتصب الزوجة، ويقتل الزوج ويسرق الدولة ويسفه الحق، ويأخذ الرشا، ثم أملى له الغرور فتبجح وتوقح وطغى.."

وهكذا يتحول فاروق في نظر الزيات وعلى سن قلمه، من ناصر الإسلام وحامي الأزهر ومؤيد العروبة، إلى هذا العربيد الفاسق الفاجر الذي يأتي الفواحش ويستهزئ بدين الله.. نعم إنه النفاق في أسمى صوره وأشد درجاته ومراحله.

إنك قد تستسيغ النفاق وتقبل صورته من أي كاتب، أما أن يكون النفاق ديدن الأديب صاحب الرسالة، فذلك وزر عظيم وفزع صارخ، تجأر منه النفس إلى ربها.

* * * *

الكاتب بين التدوير والتسويق

في دنيا الكتابة تجد كاتبًا ذكيًا، وآخر قليل الذكاء لا نباهة في عقله، ولا تطوير يطرأ في مخايله، ونحن حينما نصف الحالة التي يظهر بها البعض في الكتابة من الذكاء وقلته، أو من التفكير والضمور، فهذه قسمة الله تعالى في حظ كل عقل، وما يمتلكه من القدرات الإدراكية والتوعوية من الفهم والذكاء والنباهة.

فالكتابة كأي شيء في الدنيا، تجد في عالمها الذكي واللماح، كما تجد التقليدي المقلد قليل الذكاء، والذكاء وقلته فيما يتعلق بمسألة الكتابة، نجده أكثر ما نجده في أمرين.

الأول: ويكون في عملية تدوير المعلومة التي يقرؤها الكاتب، فكثير من الكتاب يقرؤون، ولكن قليلا منهم من يستطيع إعادة تدوير ما يقرؤه من قصص ومعلومات ومواقف، يعيد تدويرها في مقال مختلف، يحمل فكرة مختلفة، وهدفا متباينًا مع المصدر الذي قرأ منه أولا.. وهنا يتجلى الذكاء أو قوة الفهم، أو نباهة العقل، وتوقد الذهن، بعكس الكاتب الذي يقرأ كثيرًا ولا يهتدي في تعامله مع المعلومات والمواقف لعملية التدوير.

الشيخ الغزالي رحمه الله في كتابه القيم جدد حياتك، حينما قرأ لديل كارينجي في كتابه دع القلق وابدأ الحياة، ورأى أن لكل هذه القيم أصولها في

الإسلام، فأعاد تدويرها وصياغتها مرة أخرى من منطلق إسلامي، وهو ذكاء فريد وعمل حصيف، وفكر قويم، يقول الغزالي: "لقد قرأت كتاب دع القلق وابدأ الحياة للعلامة ديل كارينجي الذي تم تعريبه، فعزمت فور انتهائي منه، أن أرد الكتاب إلى أصوله الإسلامية.

لا لأن الكاتب الذكي نقل شيئا من ديننا، بل لأن الخلاصات التي أثبتها بعد استقراء جيد لأقوال الفلاسفة والمربين، وأحوال الخاصة والعامة، تتفق من وجوه لا حصر لها مع الآيات الثابتة في قرآننا، والأحاديث المأثورة عن نبينا، إن المؤلف لا يعرف الإسلام ولو عرفه لنقل منه دلائل تشهد للحقائق التي قررها أضعاف ما نقل من أي مصدر آخر.

إن الفطرة السليمة سجلت وصاياها في هذا الكتاب بعد تجارب واختبارات، وما انتهت من تسجيله جاء صورة أخرى للحكم التي جرت على لسان النبي العربي الكريم محمد بن عبد الله منذ قرون."

وهناك بعض الكتاب من شدة توقدهم وحضور ذكائهم، تجد أن كتاباتهم تغلب على قراءاتهم، وذلك من كثرة ما يستلهمون من قراءتهم من أفكار ثمينة وثرية، فكلما قرأ سطرًا واحدًا، وجد فيه الجديد من الأفكار والمفاهيم التي ينتجها قلمه في مقال مستقل عن عالم الكتاب الذي كان يقرأ فيه.

وهؤلاء يكونون على عكس من يقولون: نقرأ ١٠.٠٠٠ كتاب حتى نكتب كتابًا، أو نخوض بحرًا لنشرب كوبًا.

إنهم يتعبون جدًا في الكتابة، وترى إنتاجهم ضعيفًا، وذلك لقلة نباهتهم، أو توقد ذكائهم في عملية تدوير المعلومة.

أما الأمر الثاني: فيتعلق فيه ذكاء الكاتب وقلته، بمسألة التسويق لقلمه.

فما معنى أن تقوم حادثة، أو تقع واقعة تقلب الدنيا وتثير الرأي العام، وتشغل بال الجماهير وحديثهم أياما طويلة، ثم لا تجد كاتبا يكتب عنها أو يُدلي فيها بدلوه؟

أنا أعتبر هذا النوع من الكتاب قليل الذكاء، حينما يعزف أن يعطي رأيه في هذه القضية التي تتفاعل معها كل الأمة، اللهم إلا إذا خاف وخشي من شيء يحذره، يجر عليه خطورة أو عقوبة، فذلك اتجاه آخر، وعذر يقبل منه امتناعه عن الكتابة.

فمن يتناول الكتابة في القضايا المثارة، يسهم في الترويج لنفسه، والتسويق لقلمه وفكره، فلا شك أن الناس تقبل على قراءة كل مقال أو كتاب ينال هذه القضية.

وهناك صورة أخرى للتسويق قريبة من هذا، فهذا كاتب تراه كلما ظهر مسلسل أو فيلم من الأفلام، يتناول حقبة أو شخصية مجهولة في التاريخ، أو دولة من الدول، وأمة من الأمم، أو حكى قصة حزب من الأحزاب، أو جماعة من الجماعات، سارع هذا الكاتب ليكتب عن موضوع الفيلم وقصة المسلسل، فهذا نوع من ذكاء التسويق الذي يكون عليه الكاتب ومنتبها له، حين يغتنم بشغف الناس بالموضوع وكأنه قضية مثارة في تلك الايام، بل يدرك أن الناس يتسابقون لاقتناء الكتب التي تحكي عن هذا الموضوع، وأن قطاعا كبيرا من القراء يريدون معرفة المزيد في هذا الجانب، فكم من كاتب حينما ظهر مسلسل قيامة أرطغرل، سارع ليكتب فيه كتبًا أو مقالات! ثم لما ظهر مسلسل قيامة عثمان، سارع ليضع بصمته كما فعل في سلفه، وكلها أفكار تسويقية ذكية تخدم قلم صاحبها.

طلبت بعض المجلات التي تكتب في الموضة والرياضة وأخبار الفنانين والفنانات، من بعض علماء الدين أن يكتب فيها مقالا ثابتًا، فلما استشار من حوله من أصحابه وتلاميذه، استنكروا ذلك وقالوا له: كيف تكتب في هذه المجلات التي لا تلتزم بالدين، وتخلو من الوقار والاخلاق؟

فما كان منه إلا أن وافق على الكتابة فيها قائلا: إن كتاباتي في هذه المجلة، تعد إطلالة ونافذة للأفكار الإسلامية، لتصل من خلالها إلى شريحة

من الناس، لا تطلع في الدين ولا تعرف شيئا من ألوان التدين والالتزام، أو مرامي الشريعة وتعاليم الإسلام، وهو ذكاء وقاد، يخدم الدعوة ويخدم صاحب القلم، ويوسع شريحة قرائه.

بقي شيء نُشير إليه، وهو أن مسألة إعادة التدوير، والتنبه لتطوير وتحوير الأفكار، لا يستطيع الذكاء وحده إتمامها وإنجازها إن لم تسانده ثقافة قوية، واطلاع واسع، يسعفه لتكوين ما يريد وتدويره، ويمكن لك أن تتخيل قصة قرأت عنها، واهتدى عقلك أنها يمكن أن تستخدم في مغزى آخر، ولكن أين المعينات التي تتكاتف وتتآلف معك، لتكوين مقال يُعبر عن هذه الإفادة الأخرى؟!

لا شيء يعينك ولا طريق يغنيك، إلا الثقافة الواسعة، والاطلاع الضخم، الذي هو طريق الأذكياء، لكتابة غزيرة، وإنتاج مهول.

* * * *

أخطاء اللغة لا تلغي إبداعك

اعلم أيها الكاتب.. أن الفكر والأدب والموهبة، ليس لهم علاقة بإتقان قواعد اللغة العربية، فمن الممكن جدًا أن تكون موهوبًا ومفكرًا ولك إبداعاتك وابتكاراتك وأنت ضعيف في النحو وقواعد الإعراب، كما أن اللغة لا تعني الإعراب فقط وإنما لها صور مختلفة، وهذا طبعًا ليس تبريرًا للخطأ، ولكن هناك من يعتقد أن مجرد السهو عن خطأ في اللغة، أو عدم الحديث بالعربية الصحيحة، أنه بهذا قد خرج من عالم الفكر والثقافة والأدب والإبداع.

وهذا ما حدثني به بعض أصدقائي من أساتذة الجامعة، من أنه إذا قرأ مقالا ووجد خطأ في النحو لا يكمله، ولعل هذه مشكلته هو.. لأنه رجل متخصص في هذا العلم، وهو في رأيّ خطأ كبير، فهناك أدباء كثر لم يكونوا أقوياء في النحو والإعراب، كما نجد من متقني النحو من هم ضعاف الأدب، وكان طه حسين يعيب على بعض الأدباء المحدثين عدم إدراكهم لقواعد اللغة، وأن مؤلفاتهم فيها كثير من الأخطاء النحوية، وتحديدًا كان الاديب الروائي (يوسف السباعي) وهو نفسه يوسف السباعي، الذي كانت رواياته تملأ السمع والبصر، وكانت له إسهاماته الأدبية الكبيرة.

وكبار الكتاب في الصحف يرسلون مقالاتهم لكي تراجع لغويًا في الديسك بالصحيفة، ولا يرون في بعض جهلهم باللغة عائقًا أن يكتبوا

ويعبروا، لأنهم يملكون أفكارًا وخبراتٍ وتجاربَ تهم البشرية وتستنير بها العقول.

حتى الأخطاء الواردة لبعض من أقرأ لهم من الكتاب، إذا وجدت أغلب كلامهم صحيحًا في الإعراب أعلم جليًا أنها سهو وغفلة، أما إذا كانت الأخطاء ٩٠٪ أو ٨٠٪ أو ٧٠٪ أو حتى ٥٠٪ فأعلمُ ساعتها أن القوم بينهم وبين النحو بون شاسع وسد شاهق.

وأنا عن نفسي كان لدي شريط كاسيت للشيخ الغزالي، يتحدث فيه ويخطئ خطأ فاحشًا، في اسم كان حينما جعله منصوبًا بدل الرفع، والغزالي هو من هو إمامة وأدبًا وعلمًا ولغة.

وهذا الكلام تحديدًا أسوقه لبعض الكتابات الشابة الناشئة، من الذين يظنون أن طريقهم إلى عالم الفكر والأدب مسدود لا سبيل لهم إليه، لأنهم يجهلون قواعد الإعراب والنحو في كلامهم.

وهناك بعض الأحبة يصحح لي بعض الأخطاء النحوية، وأرى من خلال تعبيراتهم: أنه يريد أن يقول لي: (لا تتحدث ولا تتزعم ميدان الكتابة، ما دمت تُخطئ في النحو) والحق أن هذا خطأ كبير، ورغبة ظالمة، فالسهو عن خطأ لغوي، لا يجعلني أبدًا أن أشعر بأي نوع من الخزي والحرج والتواري، وأنت يا أخي الكاتب، كن مثلي تمامًا وانظر لنفسك: لقد كتبت وفكرت

وأبدعت وأنتجت وقدمت الجديد، وكان هناك ما قلته، وكان هناك من قرأ لك وأفاد منك، واستمتع بما سطرت، أما من يهدم كل هذه المفاخر لهفوة نحوية، أو جملة إعرابية، فهو لا محالة متشدد متعنت.

ولا يوجد في الدنيا شيء كامل.. لكن.. مهما كان الخطأ في اللغة، يبقى الإبداع والفكر سيدي الموقف.

أجدد نيتي أنني لست من أعداء اللغة وقواعدها، بل أنا من عشاقها والداعين لها، ولكني في ذات الوقت، أجدد تأكيدي بأنني لا أقبل أن يكون الجهل بها سدًا حاجزًا في وجه المبدعين والمفكرين.

بعض أساتذتي حدثني يومًا بأن أجتهد في تنقيح مقالي، حتى لا يتشبث به أحد الناقدين الكارهين لي، فيكون فيه فرصة للتعريض أو الاستصغار والاستهانة، والحق أنني لا أعبأ بمن يترك الغايات ويمسك بالقشور.

نريد من شبابنا أن يفكروا ويكتبوا وينتجوا، ولا يتصوروا أن اللغة تغتالهم وتسبب لهم أزمة إن جهلوا إعرابها، لأن اللغة ليست نحوا فقط، وإنما اللغة أدب واستحسان للجميل من الألفاظ والأفكار، لكن عليهم أن يواصلوا في تعلمها ومعرفة قواعدها، حتى تكتمل لهم معالم الكاتب الناضج.

وليحذروا مما قاله السلف قديما في تعلم النحو:

قول عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: "تعلَّموا النَّحو كما تُعلِّمون السُّنن والفرائض" وروي أنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "رحم الله امرءًا أصلح من لسانه"[1]

وقال أيُّوب السِّختياني الإمام رحمه الله: "تعلَّموا النَّحو فإنَّه جمالٌ للوضيع وتركه هُجنةٌ للشَّريف" وقال محمَّد بن سلام: "ما أحدث النَّاس مروءةً أفضل من طلب النَّحو"

وليس معنى هذا أن يجهد الكاتب نفسه في معامع النحو والتبحر في مراجعه وكتبه، ولكن يكفيه فيه ما يعينه على استقامة حرفه وكتبه، يقول الجاحظ: "لا يشغل قلب المتعلم بالنحو إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوم في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به كرواية الخبر الصادق والمثل الشاهد والمعنى البارع"

ويقول الدكتور أحمد شلبي: "إن قواعد اللغة العربية شيء مهم جدا للطلاب، ولكن المستعمل من القواعد هو ما ينبغي أن توجه له أكثر العناية، أما التصغير وبعض صور الإعلال والإبدال، فيكفي الإلمام بها كتراث فقط."[2]

١ - حديث ضعيف

٢ - الموسوعة التاريخية ج١٠

* * * *

أقلام إلى زوال

كنت قديما أظن وأقول: إن صاحب القلم ذو ملك كبير، وكنت أردد دوما مقوله فولتير: "إذا لم يكن صولجان، أليس لي قلم؟!"

إن صاحب القلم يمكنه قلمُه أن يبقى خالد الذكر بين الناس، بما سطر وكتب وأفصح وأبان، وها نحن ما زلنا نتناقل تراث الأمم والحضارات، التي سجلت أيامها وآثارها وشؤونها وتواريخها بفضل القلم والمداد، الذي خلد الأشخاص والأحداث.

لكن تخيل وتأمل، فليست كل الأقلام تملك الخلود، وتملك القدرة على الكلام بين الناس وبين حنايا الزمان، هناك أقلام سرعان ما تندثر وتمور وتبلى ويتبخر مدادها وكأنها لم تكن، وكأن صاحبها ما كان، وما كتب في يوم من الأيام حرفًا واحدًا، ولا تحسبن أن هذه الأقلام كانت هينة هشة، أبدًا فقد كانت أقلامًا كبيرة، يدوي ذكر أصحابها في سمع الزمان.

ويعلو زئير أقلامها ويرعد في جنبات الدنيا، ولكنه لم يكن زئيرًا أو رعدًا يؤازر الحق وينصر الحقيقة، وإنما كان زئير النفاق ورعد الزيف والزور، ولأجل هذا انتهى واندثر؛ لأنه لا يبقى في الدنيا غير الحقيقة، ولا يعلو مع الأيام غير سلطان الحق.

ما أعياهم والله ما أعياهم، حينما نذروا أقلامهم للتطبيل والنفاق والمجاملات، حينما جعلوا من هذه السنان سلاحًا للسلطان يحصدون بها خصومه، ويقهرون بها مخالفيه.

لقد خلطوا مدادهم بالسُم الزعاف، وسلطوه على كل معارض حر حاول أن يعبر عن رأيه ووجهة نظره، فشوهوه وقزموه وافتروا عليه.

إنهم كتاب السلاطين، وأقلام الحكام، كانوا قديمًا يدوي ذكرهم وتزدان بصورهم وأسمائهم كبريات الصحف والمجلات، لقد تواروا واندثروا حينما غاب السلطان أو تخلى عنهم، أو أزاحه الله من الوجود والسلطة، أين فلان وفلان وفلان؟ لقد نافقوا وقبضوا الثمن، ولم يبقَ لهم ذكر، واختفوا حينما اختفى سيدهم، وصاروا إلى مزبلة التاريخ، بعدما كانوا أئمة النفاق والرياء، وهكذا مصير كل من أهان قلمه ولم يحترم الحق والحقيقة، وضحك على الأمة، وخان الجماهير.

وليت من بعدهم ومن يقفون وراءهم في طابور النفاق، يتعلمون من زوالهم، ولكن الكل تسوقه الشهوة والطمع والرغبة القوية، في ممارسة دوره في النفاق والتملق، الكل يلهث وراء المصالح والامتيازات على حساب قلمه وحساب ضميره وحساب أمته.

منافق.. مدلس.. أفاك.

ما أروع العقاد حينما ترك عالم السياسة القذر، وصحبة السياسيين المدلسين، وعكف على الكتابة في الفكر والأدب، وساهم بقلمه في بناء وعي الأمة وثقافتها، ونهضة الوطن والأجيال، لقد وجد العقاد نفسه يكذب ويدلس ويفتري ويبهت، فاستفاق وتنبه واستيقظ وعرف الطريق، وصار إلى اليوم رغم اعتدال بوصلته، نجد جزءًا من تراثه وتاريخه شاهدًا عليه، بأنه كان من أقلام الساسة الذين يستخدمونهم ضد أعدائهم تحزبًا وتعصبًا بعيدًا عن الحق والصدق، والحق يقال: إن يقظته وما قدم من تاريخ علمي وفكري حافل، قد غفر له كل شيء، لأنه أيقن أن صفحات الفكر خالدة باقية، تنير دروب العقل والوعي، أما كلمات السياسة، ومقالات النفاق والخصومة والحزبية، فمصيرها إلى لفائف البقالين، وعمرها قصير وسرعان ما تهوي في دنيا النسيان.

ولعل هذه القيمة، لا يدركها إلا العقلاء الشرفاء، أما أقلام الإفك، فلا يهمها عقل أو تنوير بقدر، ما يهمها أن تنافق وتشاقق لتحصل على المال والجاه، فجلودهم ماتت، وأحاسيسهم تبلدت، وأخذوا حصانة من أي شعور أو إحساس بوخزات التاريخ وسياطه وذمه وسلخه لمسيرتهم وأيامهم.

يقول سيدي المنفلوطي في نظراته:

" الكُتَّابُ في مصر ثلاثة: جاهلٌ لا يميز بين ما ينفع أمته وما يضرها، وعاقلٌ يهاب مصادرة الرأي العام في مألوفاته ومعهوداته، فيسكت مغلوبًا على أمره، ومنافقٌ يعرف الحقيقة ويعبث بها. فمن أيٍّ واحد من هؤلاء الثلاثة تستفيد الأمة رشدها وهداها؟!

وأكبر هؤلاء الثلاثة جرمًا، وأشدهم ضررًا، وأسوأهم أثرًا، ذلك الكاتب المنافق الذي هو أشبه شيءٍ بالنائحة التي تسدل على وجهها نقابًا تتباكى من ورائه لتستبكي اللواتي يردن البكاء من النساء، وما في جفنها – يعلم الله – قطرةٌ من الدمع، ولا في قلبها لاعجٌ من الحزن، ولكن هكذا قدر لها أن يجري رزقها من بين العبرات والزفرات، وإن شئت فقل: إنه كشاعر القهوات يسرد على السامعين قصص الوقائع والحروب بين الأبطال الخياليين حتى يثير عواطفهم، ويهيج أحقادهم، فإذا قسمهم على أنفسهم وضرب بعضهم ببعضٍ خلص من بينهم إلى منزله فرحًا مغتبطًا برنين الدراهم في كيسه، وقد ترك وراءه أولئك البسطاء أسرى الهموم والأحزان، قتلى الضغائن والأحقاد.

الكاتب العاقل يخدم عواطف الأمة بتنميتها وتهذيبها، وتحويل تيارها إلى الخطة المثلى، أما الكاتب المنافق فإنه يستخدمها لنفسه وإن أفسدها على أصحابها."

ما أقبح الكاتب حينما يكون همه المال، وما أقبح الدنيا حينما تدفع الكاتب ليتسربل بالنفاق ويرتاد مداهنة القراء، يا ليتنا ندعو دومًا بهذا الدعاء حتى ينصلح حال الأمة بصلاح أقلامها: اللهم اغن العلماء والكتاب.

إن المنفلوطي يعود هنا ليصور لنا هذه المأساة، يوم أن يفتقر الكاتب وتلجئه الظروف للنفاق والتبذل، فيتحول قلمه إلى مهنة تخدم جوفه وقوته، قبل أن تخدم الحق وتعلن الإنصاف، مأساة بكل المقاييس حينما تتحول إرادة الكاتب، وترغمه الظروف القاسية أن يتاجر بقلمه ويرضي به الناس.

يقول المنفلوطي:

"دخلت مرة على بعض الكتاب، فعتبت عليه أنه يكتب غير ما يعتقد، ويقول غير ما يعلم، وقلت: إن خطتك هذه مضرة بالأمة التي أنت أحد قادتها، وإنك قد سلكت في مذهبك هذا سبيلا ما كنا نعرفه لك قبل اليوم، فقد عهدناك تصدع بالحق لا تبالي أغضب الناس أم رضوا، وتجهر به وإن لم تجد أذنا واعية أو صدرا رحيبا. فأطرق طويلا ثم رفع رأسه وأحسب أني رأيت قطرة من الدمع تترقرق في عينيه وقال: والله ما سلكت هذا السبيل وأنا أعلم أن فيه رضا الله أو رضا الحق، ولكني امرؤ لا أعرف لنفسي صناعة غير صناعة القلم، قبحها الله وقبح كل ما تأتي به، وكنت أحسبني أستطيع أن أجمع فيها بين شرف النفس ورغد العيش فخاب ما أملت، إذ رأيت نفسي كسفينة

ماخرة في بحر زاخر من شعب قاصر يطلب مني ما يلذه لا ما يفيده، ويتقاضاني ما يعجبه لا ما ينفعه، فطفقت أرتئي بين أن أرضي الحقيقة فأهلك جوعا أو أرضي الأمة فأعيش سعيدًا، فغلبني حب الحياة على أمري، فلم أر بدًا من الدخول على الأمة من ذينك البابين المعروفين؛ باب الوطنية وباب الدين، فاصطنعتهما لنفسي بعدما كنت أصطنع نفسي لهما، فرغد عيشي وحسن حالي وأصبحت لا يكدر علي صفائي غير الأسف على الحقيقة الضائعة."[1]

* * * *

[1] – النظرات للمنفلوطي

من أسعد اللحظات

هل تعرف ما هي أسعد لحظة في حياة الكاتب؟

ربما يجيب بعضهم بقوله: حينما يرى كتابه مطبوعًا ويمثل بين يديه، ويجيب آخرون: بأنها لحظة الانتهاء من تأليف كتابه، ويجيب غيرهم وفيه يظهر عنصرهم المادي: حينما يخبرهم الناشر أن الطبعة الأولى من كتابهم قد نفدت، ويتجهزون لطبعة ثانية.

والحق أنه لا شيء من هذا كله يسعد قلبي ككاتب، بقدر ما أسعد حينما ألتقي بأحد القراء، فيحدثني عن كتابي وهو لا يعلم أني مؤلفه.

حدث مرة أن بحثت في جوجل عن اسم رسالة لي كنت قد ألفتها وأنا في مرحلة الجامعة، وكانت تحت عنوان (قيمة الوقت في حياة المسلمين) فظهر لي أحد الجروبات، وقد عرض مشرفوه كتابي، وقالوا: سنتناول في حلقات متتابعة أجزاء من هذا الكتيب، وذكر مقدمته وبدأ في طرح مادة الكتيب جزءًا جزءًا، والحق أنني لا أخفيكم كم كانت سعادتي كبيرة في هذه اللحظة، سعادة لا تُضارع ولا تقدر بثمن، حينما ترى الناس يتناولون أفكارك، وذات الأمر حينما أخبرني أحد الأصدقاء، أنه كان يقلب في مكتبة المسجد فوجد لي فيها كتابا.

ونفس الغبطة حينما أبحث في الانترنت، فأجد بعض المواقع الإلكترونية نشرت من مقالاتي ما لم أراسلها فيه، أو أطلب نشرها عندهم،

أشعر وقتها أن ما كتبته ذو قيمة، وقد أعطوني رأيهم وتقييمهم دون مجاملة أو معرفة.

ولعل هذه اللحظة الجميلة مر بها كثير من المفكرين والمؤلفين، ففي عام ١٩٥٠م وبعد أن أرسل الأستاذ أبو الحسن الندوي مادة كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) للطباعة في مصر- لم يكن يعلم عن الكتاب شيئًا وقد مر على إرساله شهور كثيرة، ولكنه فوجئ بنسخة مطبوعة عند سفير سورية السيد جواد المرابط، وكان عضوًا بالمجمع اللغوي في دمشق، وكان قد استصحب معه نسخة من هذا الكتاب من القاهرة، ويبدي إعجابه بعمق فكر علماء الهند وأصالتهم، ويستشهد على ذلك بهذا الكتاب الذي وقع في يده لدى زيارته الأخيرة لمصر، وكان يتحدث عن الكتاب وهو لا يعلم أنه يتحدث إلى مؤلفه، فكانت سعادة بالغة، لها وقعها المؤثر في نفس الندوي.

وكذلك حينما تلقى من يحدثك عنك ويتناول معك أفكارك وهو لا يعرفك، ولا يدري أنك أنت من يُلقي عليك أفكارك التي أعجبته، وهذا ما حدث للأستاذ خالد محمد خالد حينما كان يعبر كوبري قصر- النيل إلى منزل أحد أصدقائه، وفاجأته السماء بأمطار غزيرة، وأسرع الخطى ليتقي المطر، وفجأة اقترب منه شاب باسط يديه بصحيفته وقال له: تفضل واتق المطر، وإن كانت عزيزة علي لأن فيها مقالا لي.

سأله خالد: إذن أنت كاتب؟ فقال أحاول أن أكون كاتبًا، فسأله مرة أخرى: من أكثر كتابنا حظًا من إجابك؟ فأجاب من فوره: خالد محمد خالد، فقال له خالد: الجدع ده اللي له كتاب اسمه إيه.. اسمه إيه... آه اسمه من هنا نبدأ.

قال الشاب وهو يضحك: أيوه هذا كتابه، لكن مش اسمه الجدع ده، اسمه الأستاذ خالد محمد خالد. وانتهى الحديث بينهما إلى الكشف عن شخصية خالد، فطار الشاب من الفرح حتى قال له: إنه لم ينم ليلته وأنه سيطوف على زملائه ليقول لهم: إنه قابل خالد، وكان من شدة انبهاره أنه حتى آخر لحظة من اللقاء يقول له: أنا مش مصدق إنك خالد محمد خالد.

وأتذكر مرة أنني كنت في رحلة مع بعض الأصدقاء، لإحدى الحدائق بمدينة السادات، والتي تبعد عن موطننا بمسافات كبيرة، وبينما كان زملائي يلهون ويلعبون، حتى اقترب منهم رجل يتعرف عليهم، ولما عرف موطنهم قال لهم: هل تعرفون فلانًا؟ قالوا: نعم وهو معنا الآن، فلما التقيته ذكر بأنه عرفني من مقالاتي في بعض الصحف، حيث كنت أكتب اسمي واسم قريتي.

لحظة مبهجة.. حينما تقابل من يقدرك ويقرأ لك، ويحفظ أفكارك، ويعتز بكتاباتك، نعم إنها من أجمل اللحظات.

* * * *

مولد الصواعق

كان في حياة الأستاذ الكبير الشيخ الأديب (علي الطنطاوي) من سخر من أحلامه واستهزأ بطموحاته فقد كان يقول :" لقد كان رفيقي (سعيد الأفغاني) يمد شفتيه ساخرًا كلما حدثته عن آمالي في الحياة، ورغبتي في أن أكون كاتبًا يشار إليه بالبنان" لكنه انطلق في مسيرته غير عابئ بسخرية سعيد وشفتيه الممدودتان، فقرأ لكثير من الأدباء كالمنفلوطي والزيات والرافعي وغيرهم، وأحس عقب هذا بأشياء تجيش في نفسه، فنفس عنها بمحاولة الكتابة، فاستوى له مقال قرأه على رفيق له فاستحسنه وعرض عليه أن يسعى لنشره ، فاستكبر الطنطاوي هذا الأمر، ولكن صديقه ألح عليه، وما أبعد البون بين هذا الصديق المشجع، وبين الصديق الأفغاني المثبط، فذهب إلى دار المقتبس في شارع السنجقدار العظيم، والتقى بالأستاذ (أحمد كرد علي) صاحب الجريدة، ودفع إليه المقال، ولم يكن النشر في ذلك الوقت أمرًا سهلًا أو ميسورًا للمواهب الشابة، فهو يقول :" لم يكن من إخواننا من يعرف طريق صحيفة أو يجرؤ على النشر فيها" وحينما تسلم الأستاذ (أحمد كرد) مقالة الشاب اليافع (علي الطنطاوي) نظر فيه فرآه كلاما مكتهلًا ناضجًا، ونظر إلى الطنطاوي فرأى فتى صغيرا، فعجب أن يكون ذاك من هذا ! وكأنه لم يصدقه، فاحتال عليه حتى يمتحنه بشيء يكتبه أمامه، وزعم أن المطبعة

تحتاج إليه ولا يصح تأخيره، فأنشأ له الطنطاوي إنشاء من يسابق قلمه فكره فازداد عجبه منه ووعده بنشر المقال.

يقول الشيخ الطنطاوي:"فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبي، أنظر هل نبتت لي أجنحة أطير بها لفرط ما استخفني السرور؟ ولو أني بويعت بإمارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد، وسرت بين الناس وكأني أمشي فوق رؤوسهم تعاليًا وزهوًا، وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة، بل لبثت أتقلب على الفراش أتصور أي جنة من جنات عدن سوف أدخل في غداة الغد.. أي كنز سأجد، وجعلت أترقب الصباح كعاشق متيم ينتظر وصلًا بعد طول الهجران، حتى إذا انبثق الصبح وأضحى النهار، أخذت الجريدة، فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه.."

وأمام الموقف، كان من الوارد أن يُعرض عنه الأستاذ (أحمد كرد)، فهو رجل صاحب جريدة ومسؤول، وليس لديه وقت ليشغله مع فتى صغير، من المؤكد أنه لا يحسن الكتابة، لكن الأستاذ (كرد) كان على خلاف ذلك، فقد كان ممن يؤمنون بالتشجيع ويعرفون أثره العميق على النفوس، ويخشى إن هو أعرض عن هذا الفتى أن يُطفئ في نفسه هذا الحب الوليد للكتابة، ولكن هناك شك كبير يمسك بتلابيب نفس صاحب الجريدة، ولكي

يعالج هذا الشك العالق به، كان ولا بد من هذه الفكرة التي لا مناص منها، وهي اختبار الفتى حتى يظهر البرهان إن كان المكتوب مِلكه وإنتاجه أم احتال به وسطا عليه من أحد الكتاب.

ونجح الشاب (علي الطنطاوي) في الاختبار، وكانت هذه هي البداية لمسيرة الكتابة، وبلغ الطنطاوي ما بلغ، وصار من كبار العلماء والأدباء، حتى قال فيه الشيخ (القرضاوي):"كان مشعلًا من مشاعل الهداية، ونجمًا من نجوم التنوير، ولسانًا من ألسنة الصدق، وداعية من دعاة الحق والخير والجمال"

وقال عنه (منير الغضبان):" كانت حياته كلها صدعًا بالحق، لا يخشى زعيمًا ولا كبيرًا ولا رئيسًا كان يُغذي فينا عنصر الثورة للإسلام والاعتزاز به والتضحية في سبيله"

وفي قصيدة تحت عنوان (بشائر الفوز) رثاه الشاعر (أحمد الصديق) فقال:

شدا بفضلك أهل العلم والأدب ** فاظفر بما شئت في الفردوس من رتب

إذا تحدثت ناجيت القلوب فما ** في الحاضرين فؤاد غير منجذب

* في لندن.. كان يطمح هذا الشاب أن يكون كاتبًا مرموقًا، لكن الأقدار منعته من ذلك، فقد كان فقيرًا لا يستطيع أن يلتحق بالمدرسة، وينتظم

في صفوفها وبين طلبتها؛ لأنه يعجز عن دفع رسومها؛ ولأن والده دخل السجن، عاش هذا الفتى الفقير حياة الحرمان والجوع والفقر، ولم يجد أمامه إلا أن يعمل في مهنة حقيرة مهينة، في مخزن مهجور يعج بالفئران، يلصق الورق على زجاجات الطلاء، وفي هذا المستودع كان يعيش مع فتيين آخرين، وفي ظل هذا البؤس والضياع كان يشعر برغبة قوية في نفسه تقوده نحو الكتابة، التي كان يعشقها ويختلي بها في جوف الليل، حتى لا يراه أحد فيسخر منه، فيحطم إحساسه المرهف.

كان يكتب قصصه ويرسلها للصحف، يُرسل القصة تلو القصة، فلا يجد غير الرفض والتجاهل، ورغم هذا، كانت قوة الموهبة تدفع عنه مشاعر الإحباط، وتوحي إليه بالاستمرار فيما يهواه، إلى أن جاء اليوم الذي قُبلت فيه أول قصة من قصصه التي أرسلها، لقد شعر وقتها بأن الدنيا تضيق على سعادته، وهذه السعادة لم تكن لأنه تقاضى مالًا على قصته، لا.. فهو لم يحصل منها على شيء، ولكن تدفقها كان سببه الأول، أن الصحفي الذي نشر قصته امتدح أسلوبه فيها.

جعله هذا الإطراء والمديح يسير هائمًا على وجهه في الشوارع، والدموع تنهمر من عينيه فرحًا واغتباطًا، ومن يومها تغيرت حياته وارتسم له خط آخر، وأصبح فيما بعد (تشارلز ديكنز) الأديب المشهور، الذي لولا هذا التشجيع، لكان من الممكن أن يقضي بقية حياته بين الفئران، يلصق

الورق على زجاجات الطلاء، لكنه أصبح بفضل هذه السطور البسيطة، أعظم الروائيين الإنجليز في العصر الفيكتوري بإجماع النقاد، ولا يزال كثيرٌ من أعماله يحتفظ بشعبيّته حتى اليوم، تميَّز أسلوبه بالدُّعابة البارعة والسخرية اللاذعة، صوَّر جانبًا من حياة الفقراء، وحمل على المسؤولين عن دور الأيتام والمدارس والسجون حملةً شعواء، من أشهر آثاره: (أوليفر تويست) و(قصة مدينتين) و(أوقات عصيبة).

وتحت ذات السماء.. سماء لندن.. كان هناك صبي آخر يسمى (هربرت جورج ويلز) يعمل في متجر متواضع للسلع الجافة، يستيقظ في الخامسة صباحًا، وينظف المحل ويكدح لمدة ١٤ ساعة يوميًا، وكان عملًا شاقًا حقيرًا يشعر فيه بالمهانة، ولا ترتضيه نفسه، وبعد عامين لم يعد يحتمله، فنهض في أحد الأيام ولم يتناول إفطاره، وقطع ١٥ ميلًا لكي يصل إلى أمه التي كانت تعمل مُديرة منزل لأحد الأثرياء، وتوسل لأمه أن تعفيه من هذا العمل، وكان شديد الاضطراب، حتى اضطره الأمر أن يهددها بالانتحار والتخلص من حياته، لو أنها أصرت على عودته لهذا العمل المهين، ووجد في نفسه حنينًا لأن يسمعه أحد ويشاركه همومه، فكتب خطابًا طويلًا إلى مدير مدرسته القديمة، يشكو إليه حاله وآلامه وسوء حظه في الحياة، التي لم يعد يشعر بمعناها حتى أنه لم يعد يريد العيش.

ورد عليه مدير المدرسة وامتدحه، وأكد له أنه ذكي جدًا، ويصلح لأمور أحسن مما هو فيها، وعرض عليه العمل كمدرس، وعينه بالفعل مدرسًا في مدرسته.

واستطاع هذا الثناء والمديح أن يغير مستقبل هذا الغلام، الذي كان له شأنه وتأثيره المرموق في الأدب الإنجليزي، لقد ألف هذا الصبي منذ ذلك الحين سبعًا وسبعين كتابًا، وحصل على مليون دولار من كتاباته.

يقول الناقد والمفكر الراحل رجاء النقاش: "في أحوال غير قليلة يعجز النقاد عن فهم العبقريات المعاصرة لهم، فيتهمونها، حتى يأتي جيل جديد بعد جيل العباقرة، فيفهم ويتحمس لهم، وكم من عبقري مات جائعًا، ثم أصبحت أعماله بعد رحيله يتهافت عليها الناس وتباع بالملايين"

أن تقتل مبدعًا، ليس بأقل من أن تقتل طفلًا بريئًا أو عالمًا كبيرًا.

* * * *

سيعرفون قيمتك يومًا

ماذا لو طلب منك أن تكتب سطرًا من إبداعك، وجاء نجيب محفوظ مثلا وكتب بجوار ما كتبت سطرًا من إبداعه؟!

هل ساعتها سيلتفت إليك أحد أو يعبأ بما كتبت؟! لا تحتار في الجواب، فلن يهتم أحد بكلماتك لأن الأنظار كلها ستتجه إلى الأديب الكبير، والروائي المبدع، الذي حصل على نوبل، ولكن لا تيأس، فربما لا يدرك الناس موهبتك وقدراتك وقيمة إبداعك، وأواتيك بالمفاجأة، هل تعلم أن هذا الأديب الذي حصل على نوبل، وجذب الأنظار عنك، عانى مثل ما عانيت من الإهمال والاستنكار، لم يكن أحد يُدرك موهبته أو يلتفت إليه، حتى أنه كان مثلك تمامًا، لو وضع كلماته بجوار ما كتب نابغة من السابقين، لما التفت إليه أحد أو أشاد به، حتى أتت اللحظة المناسبة، وعرفه الناس، وتلهفوا على أعماله وإنتاجه وصار أديبًا يشار إليه بالبنان.

نعم، لقد كانوا يرفضون أعماله ورواياته، ولا يرون أدبه حفيًا أن يظهر للناس أو يطبع على الورق، وكان مصير إبداعه دومًا إلى الدرج -درج المكتب- الذي يتسع لكل ما أبدع قلمه، حينما ضاق به الآخرون، لكن نجيب لم ييأس ولم يصبه الإحباط، وواصل الكتابة والإبداع لإيمانه بأن اللحظة المناسبة لما تأت بعد، وإيمانه أكثر بأنه مبدع.

يقول: "ما أكثر الأقاصيص التي رُفض نشرها، فالنشر دائمًا كان صعبًا، خصوصًا في البداية، حتى أننا كنا نختار بعض المجلات المتخصصة مثل بعض المجلات القضائية التي كانت تخصص معظم صفحاتها للإعلانات، فكانت ترحب بأعمالنا لتسويد صفحاتها، لكي تسند أنفسها أمام الجهات التي تصدر عنها، حتى تحصل على الإعانة اللازمة، فهذه كانت ترحب بما نكتبه، وإنما وجدنا صعوبة بالغة في نشر أي شيء في مجلة تستحق هذا الاسم، وقد كان النشر في تلك الأيام هو المجد الأعظم، والمتعة التي لا يعلوها متعة.

بدأت أكتب الرواية.. أكتب وأعرض على الناشرين فيرفضون، وأضعها في الدرج فوق سابقتها، وأسلي نفسي بكتابة القصة القصيرة، كنت أكتب الرواية وأدور على دور النشر من جديد، وبالطبع نفس المصير، تقبع مع أختها في درج مكتبي، وأبدأ في رواية أخرى، وما أن أنتهي منها حتى أحملها بدورها وألف بها على دور النشر من جديد، وبالطبع نفس المصير، حتى تجمع عندي ثلاث روايات بلا نشر وهي: (رادوبيس، كفاح طيبة، القاهرة الجديدة)[1]

١ - أنا نجيب محفوظ - إبراهيم عبد العزيز - ط مكتبة الأسرة.

ظل (نجيب محفوظ) على هذا المنوال حتى التقى بسلامة موسى وعرض عليه رواياته، عساه أن يجد فيها ما يعجبه فيقوم بنشره، لكن سلامة موسى لم تعُجبه رواياته، وفي الوقت نفسه أدرك موهبته التي تحتاج إلى تشجيع، فنصحه بأن يستمر في الكتابة حتى يرقى للنشر، قرأ لي أربع روايات، وفي كل مرة كان يقول لي: لا تصلح للنشر. ولكن استمر، لابد أن تستمر، في انتظار رواية أخرى منك، إلى أن جاء يومٌ آخر من أسعد أيام حياتي: ذهبت له برواية (عبث الأقدار) وحين قرأها فاجأني: هذه تصلح للنشر، وحجزها لديه، وكانت فرحة لا تقدر حينما قال لي: سوف أطبعها وأقدمها هدية من المجلة الجديدة، في إجازتها السنوية، وكانت لهذه المجلة إجازة شهران، تعطي للمشتركين فيها كتابًا بدلا من المجلة، لحظتها لم أصدق ما أسمع، غير أني كنت أثق في كلام الرجل، مع هذا ظللت لا أصدق نفسي، حتى فوجئت به في أحد الأيام يقول لي بهدوئه المعتاد: اذهب للمطبعة وصحح روايتك، جريت إلى المطبعة وفرحة الدنيا لا تسعني، وكانت أول رواية تنشر. لي مقابل ٥٠٠ عدد منها هي أجري عن الكتاب وكان العدد بخمسة قروش"[1]

لم ييأس نجيب محفوظ مما واجهه من إعراض الناشرين، لأنه كان يعشق الأدب ويعيش له، حتى وجد من يشجعه ويؤجج مواهبه.

---

١ - المصدر السابق

إن إعراض الناشرين كان يواجهه إصرار عجيب، لأن بين الضلوع موهبة تلح عليه، وتفرض نفسها على رغباته، تمامًا كهذا الروائي الذي ضحى بكل شيء من أجل موهبته، وقرر أن يكون قاصًا شهيرًا فاستقال من وظيفته، وتفرغ لكتابة القصص، وليس لديه أي مورد للرزق غير هذه الكتابة، إنه (أرسكين كالدويل) كان يكتب من الصباح حتى آخر الليل، ويرسلها بالبريد للمجلات أملًا في نشرها، وأن ترسل له أجرها.

ومضت عليه شهور وفترات طويلة لم تنشر له قصة واحدة، وعرضت عليه بعض المجلات، أن يكتب لها عرضًا للكتب الجديدة، ولم يكن أجره من ذلك إلا الاحتفاظ بهذه الكتب التي ترسلها له، وراح يكتب ويجمع الكتب وكلما تجمع له بعضها، قام ببيعه بربع الثمن لكي يشتري بثمنه الخبز وطوابع البريد والورق والآلة الكاتبة، وكان يقوم بزراعة حديقة بيته البالي المتهدم بالبطاطس ويأكل منها.

ومع مرور الأيام امتلأت عنده حقيبتان كبيرتان بالقصص القصيرة، التي كتبها وأرسلها بالبريد، إلى المجلات المختلفة وأعادتها له معتذرة عن نشرها.. ظل هكذا في معاناته وأخيرًا وبعد ست سنوات من الكتابة اليومية من الصباح حتى منتصف الليل، نشرت له إحدى المجلات قصة وأرسلت له ثمنها عشرة دولارات، فكانت هذه المفاجأة أكبر دافع له على مواصلة

الكتابة التي انفرج لها باب الأمل، وكتب أولى رواياته ونشرها، كما اختيرت قصة من قصصه للفوز بجائزة أدبية ومبلغ ألف دولار..فلم يصدق.. وكاد أن يغمى عليه ليس لأن المبلغ المالي كبير ولكن لأن هذه القصة تحديدًا رفضت أن تطبعها ١٢ مجلة أرسلها لها بالبريد.

واحتفل بالفوز، وتناول أول وجبة لحم مشوي له ولأسرته منذ أكثر من سنة، وظل يكتب بلا توقف وأصبح مشهورًا، وله روايات تحولت لمسرحيات تُدر عليه عشرات الألوف من الدولارات أسبوعيًا، ووجدت السينما الأمريكية في أعماله مادة غنية لأفلامها، وانتشرت إبداعاته في المجلات والصحف والمسارح، وبدأ يستعيد وزنه الذي فقد منه ٨٠ رطلًا في سنوات الحرمان، واستطاع بعد صبر وكفاح أن يسترد قيمته الأدبية التي تنكر لها البعض سلفًا، وحاولت هذه المجلات الآسفة أن تشككه فيها.

* * * *

بواعث الإحباط

مات بالسل وعمره ٤١ سنة في مصحة بالقرب من فيينا، وبعد موته قام صديقه (برود) بنشر إنتاجه وتعريف العالم بأدبه، فإذا بكتبه تنتشر في كل أنحاء العالم، وتترجم إلى معظم اللغات، بغير أن يسعد صاحبها بهذه اللحظة التي طالما تحينها كثيرًا، ولكنه عانى الإهمال والتجاهل، ورحل في سن مبكرة، فلم يكن هناك من الأمل في حياته ما يشجعه على البقاء.

إنه الأديب التشيكي (فرانز-كافكا) (١٨٨٣-١٩٢٤) الذي كان يعمل موظفًا في حكومة النمسا، وكان يكتب الروايات والقصص الغريبة، التي تصور الإنسان صريعًا للقلق والشعور بالخطيئة، وأن هناك دائمًا قوى غامضة تطارده، ولكن فرانز لم يستطع أن يعيش من التأليف، ولم يستطع في حياته أن ينشر إلا القليل من أعماله، وحينما ألف كتابه التأملات، وافق أحد الناشرين على طباعته ونشره، وبعد صدوره سارع (كافكا) بشراء عشر نسخ منه، ثم اتصل بالناشر بعد أيام ليسأله عن حجم مبيعات كتابه فأجابه: بأن الكتاب قد باع إحدى عشرة نسخة فقط. ولم يهتم (كافكا) بقلة مبيعات كتابه، بقدر ما اهتم بمعرفة من هذا الشخص الذي اشترى كتابه، وفي ظل هذه النتائج المحبطة، ظل يكتب ببطء شديد، وأصابه اكتئاب وكانت نهايته كما عرفنا.

أما الأديبة البريطانية (دوريس لسنج) الحائزة على نوبل لعام ٢٠٠٧م، أرادت أن تختبر موهبتها مع الناشرين، لتعرف انطباعهم عن أدبها، هل فعلًا يؤثرونه ويحتفون به؟ أم أنها مجرد عملية تجارية يربحون منها؟! ولولا ثقتها بموهبتها لأصابها الإحباط من تصرفات الناشرين وردة أفعالهم المفاجئة، حتى عاجلها أحدهم برأيه، وأوجد خيطًا بين الزعم والحقيقة، وكان رائعًا فيما لاحظ ورأى.

لقد أعدت رواية بعنوان (مذكرات جار طيب) وقامت بإرسالها إلى أحد الناشرين، واستخدمت اسمًا مستعارًا هو (جان سومرز) وذكرت أنها الرواية الأولى لها، ورد عليها الناشر معتذرًا بعدم صلاحيتها للنشر، فكان أن أرسلتها لناشر آخر وتلقت الرد نفسه، ثم أرسلتها لناشر ثالث علق عليها بقوله: إنها قريبة من أسلوب (دوريس) في شبابها ووافق على نشرها، وحينئذ اعترفت له المؤلفة بالحقيقة، وقرر الاثنان جعل (جان سومرز) مؤلفة ناجحة، وحين صدرت الرواية تجاهلها معظم النقاد، ونتيجة لذلك رفض الناشرون إصدارها في طبعة شعبية تتوفر للجميع، وحين أذيع الخبر في الأوساط الأدبية، احتدم النقاش بين المثقفين وعموم الناس حول ما حدث، وبرز سؤال مهم ومثير، ما الذي نستخلصه من حكاية (جان سومرز)؟

وكانت الإجابة: أن دور النشر عاجزة عن اكتشاف المواهب، وتعتمد تقديرها للأعمال على الاسم لا الموهبة، وتطبق المقولة القائلة: أنه لا ينجح إلا الناجح، أو كما يقولون: الشهرة تجر الشهرة أو المال يجلب المال، ومن جانب آخر فضحت هذه الحكاية النقاد الذين يقضون جهدهم، ويعطون مساحة كبيرة لنقد كتب المشاهير ويتجاهلون المبتدئين.

الأديب الكبير (جبريال جرسيا ماركيز) الحائز على جائزة نوبل عام ٨٢م، لم يكن والده يرى فيه أي أمل، وكان غير واثق من موهبته، وانطلق يسخر من ولده في مطلع حياته، وفوق سخرية الوالد، كان الفقر يحاصر طموحه من جهة أخرى، وما أدراك ما الفقر في قتل المواهب؟!

إنه سرطان العبقريات الذي يقضي عليها ويمحو بشائرها، وهو ما تعرض له ماركيز، ولكنه قاوم بقدر ما استطاع، لقد عانى الفاقة والحرمان، ومرت به أيام كان يسد رمقه بما يجد في صناديق القمامة، من بقايا أطعمة فاسدة، وكان يعجز عن شراء الحليب لطفله الرضيع، واضطر أن يرسل نصف مخطوطة كتابه الذي وضعه في مصاف الأدباء المرموقين فيما بعد (مائة عام من العزلة) لأنه لم يكن يملك ما يكفي من المال لإرسالها كاملة إلى الناشر الأرجنتيني، وفيما بعد أرسل الجزء الثاني بالبريد بعد أن رهنت زوجته المدفئة الكهربائية وهي آخر ما تبقى لهما في المنزل بعد أن باع كل ما يملك.

وحين سلك درب الأدب وعرض أعماله، جاءته الضربة الأكثر إيلامًا، حيث قال عنه أشهر ناقد سينمائى: إنه لا يملك أية موهبة وعليه أن يبحث عن مهنة أخرى.

وبعد هذه الظروف المحبطة، والعثرات المحطمة، التي تمثلت في الفقر تارة، والتيئيس تارة أخرى، لا يسعنا إلا أن ننظر كيف مرت الأيام وكيف أصبح ماركيز؟ هل تحققت نبوءات والده، وهل صدق ذلك الناقد في رأيه عنه؟ لقد أجابتهم الأيام عن كل ذلك، وخيبت آمالهم فيما توقعوه، فتعالوا بنا نبصر كيف أصبح ماركيز؟! وكيف صار أشهر المؤلفين في العصر الحديث وأغناهم، إذ كان يتقاضى خمسين ألف دولار عن لقاء لا يتجاوز نصف ساعة، وكان يملك سبعة منازل فاخرة في خمس دول مختلفة.

أما ما حصل عليه من الجوائز والأوسمة فمنها وسام النسر ١٩٨١م، ثم جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢م، ورحل (جابريال) في مدينة مكسيكو بالمكسيك يوم ١٧ أبريل ٢٠١٤م عن عمر يناهز ٨٧ عامًا.

وإذا تأملت كل هذا النجاح الباهر والجوائز العديدة الضخمة التي نالها، وتذكرت ما كان ينعته به أبوه بالأمس، فما عليك إلا الضحك على الأيام التي خانت رجاءه!

"إن الإنسان دائمًا يحتاج إلى أن يجدد حياته من حين لآخر، بإشعال شمعة جديدة من شموع الأمل في حياته كلما ذابت شموعه الأولى، وبألا يستسلم للإحباط مهما كانت البدايات غير مبشرة ومهما عرقلت الصعوبات والعثرات طريقه، فكل الذين حققوا نجاحهم في الحياة قد فعلوا ذلك، ولم يقولوا أبدا ضاع العمر يا ولدي، ولم يعد هناك وقت لكي نبدأ من جديد، أو لكي نحقق الآمال التي طال انتظارنا لها، فالإنسان قادر دائمًا على أن يكسب مهارات جديدة في أية مرحلة من العمر يستعين بها على مقاومة السأم واليأس والقنوط"[1]

* * * *

[1] – اندهش ياصديقي للأستاذ عبد الوهاب مطاوع

الغيرة تصنع العجائب

كثيرًا ما أدفع بعض المتدربين على فنون الكتابة، وألفتهم لأمر مهم قد يؤجج مشاعرهم الكتابية، ويفجر حماستهم للقلم، وقد تعجب أنت حينما تعلم أن هذا الأمر، يتمثل في محاولة إيقاظ حس الغيرة في قلوبهم، فالغيرة أو الرغبة في المنافسة، تصنع ما لم تقو على صُنعه أقوى المرغبات وأشد المحفزات.

الغيرة تُلهب النفس، وتُشعل الحس، وتسوق المرء ليصنع الأعاجيب حتى يباري أترابه، ويظاهر أنداده، ويضاهي أمثاله، ونحن بالأكيد، لا نقصد تلك الغيرة التي تنبع من حسد وحقد وغل، وإنما نقصد بها تلك التي تبعثها المنافسة الشريفة.

لقد قلت سابقا: إن الغيرة على قدر بشاعتها ووحشتها ولهيبها، إلا أن لها صورًا زاهية، وفوائد جمة، ومشاهد إيجابية مضيئة، نعم.. فعلى قدر ما تَجُر من الحسد، والذي ربما يتطور للحقد والبغض والعداء، إلا أنها أثبتت في بعض المواضع، أنها جيدة ومطلوبة، كتلك التي يكون فيها منافسة شريفة، وسباق راق، ولعلك تجد هذا أكثر ما تجده، في الغيرة بين العلماء والكتاب، أو الأدباء والمفكرين والصحافيين، فإذا ألف أحدهم كتابًا، سارع الآخر ليؤلف كتابًا، وإذا كتب أحدهم موضوعًا أو مقالا، هرول نظيره أن يكتب موضوعًا

أروع، أو مقالا أكثر إثارة وبريقًا.. فلماذا لا يستفيد الكاتب من هذه العملية النفسية، التي تدفعه للأمام في ميدان الكتابة؟

كان (الرافعي) رحمه الله في بداية حياته يقول الشعر، ويرى نفسه ندا لحافظ إبراهيم، ويوازن بين حاله وحاله، ويضع في قرارة نفسه، أن لديه القدرة أن يبلغ مبلغه، فلا يكاد حافظ يخطو خطوة، حتى يقضي الرافعي خطوة مثلها، فلما تفوق عليه حافظ بالشهرة والجاه والأنصار، وعلاقته بالبارودي، ومكانته من الإمام محمد عبده، راح الرافعي يجد الهمة، حتى ينال ما نال حافظ، ويكمل النقص الذي تفوق عليه فيه، فأقام صلته بالبارودي، ونشر في الصحف، وصارت له علاقة عظيمة بالأستاذ الإمام، وأصبح اسمه يتردد في الصحف.

كان الرافعي في الثالثة والعشرين من عمره، فإذا بحافظ ينشر ديوانه، ويقدم له بمقدمة أدبية بليغة، كانت يومها حديث الأدباء، الذين استقبلوه استقبالًا جيدًا، وأثنوا عليه ثناء عظيمًا، فلما رأى الرافعي ذلك، غار غيرة شديدة، وعقد العزم على إصدار ديوان له، ولم يكتف بهذا بل رأى أن يصدره بمقدمة كتلك التي صدر بها حافظ ديوانه.

ووصف العريان هذه الغيرة بقوله: "كانت بينه وبين حافظ منافسة، لكن حافظ كان يتمتع بالشهرة والجاه والحظوة عند الشعب، تلك الشهرة

التي ألهبت غيرة الرافعي وحفزته على الكفاح، وحمسته إلى استكمال أسباب الغلبة" ولم ينثن الرافعي عن طريقه واهتمامه بالشعر، فانطلق حتى أصدر الجزء الثاني من ديوانه ثم الجزء الثالث، حتى تألق نجمه، وبرز بين الشعراء المعدودين، كما لقي الحفاوة من الأدباء، بما لم يلقه إلا القليلون من أدباء هذه الأمة، حتى أن الأستاذ الإمام محمد عبده قال فيه قوله الشهير: (أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفًا يمحق به الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل) وقال عنه الزعيم مصطفى كامل: (سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي، قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان) وظل كذلك حتى عام (١٩١١م) فانحرف عن مسار الشعر إلى مسار الأدب، ليلمع في سمائه، ويكون من زعمائه ورواده.

وكان كامل كيلاني رحمه الله رائد أدب الطفل، والذي ألف أكثر من ألف قصة، عاشقًا للغة والأدب العربي وقيل: إنه كان يحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر العربي، كان يحفظ شعر أبي العلاء ويجري على لسانه في كل مناسبة شجيًا معبرًا، وكان شعر البحتري وأبي تمام والمتنبي وغيرهم، ولكن المعري دائما كانت له الحظوة من تفضيله على غيره، وكان رحمه الله بارعا في الاستشهاد بألوف هذه الأشعار التي يحفظها ويتقن فهمها في أي وقت شاء، وفي أي حادثة أراد، وكان الاستشهاد في حد ذاته موهبة غريبة قديرة، تُبهر

الحاضرين والمشاهدين، وكأنه يمتلك في عقله فهرسًا إلكترونيًا يدله على الأبيات التي يريدها في الموطن الذي يتطلب حضورها فيه.

ولعل هذه العبقرية والقدرة الخارقة، كان لها سببها الذي شرحه فيما بعد للأستاذ أنور الجندي، وكانت تربطه به صداقة قوية، فقد تبين أن الدافع لهذا الاتقان الشعري، إنما دفعه إليه غيرته الشديدة على اللغة العربية، وتحديه لأستاذه في الجامعة القديمة، وكان فرنسيًا متعصبًا للأدب الغربي، حيث كان كل يوم يطالعهم بقصيدة لشعراء غربيين أمثال لامرتين أو هوجو أو جيته أو هيني، ثم يقول متحديًا: هذا المعنى لم يطرقه شاعر عربي، أنا أتحداكم أن تجدوا مثله عندكم، وتموج نفسي بالغضب والحزن، وأذهب فأنكب ليلي كله على دواوين الشعراء العرب على اللمبة نمرة خمسة.

ثم أعود للجامعة في الصباح مقرح العينين، فأقول له: إني قد وجدت مثله وخير منه عند شاعرنا: البحتري أو المتنبي أو أبو تمام، أو ذو الرمة إلخ.. فإذا به يجبهني بشعر آخر، وأعود مرة أخرى إلى البحث، هكذا حتى تجمع لدي أكثر من بضع ومائتين مقابلة، ثم شاء الله أن أجد أكثر من أربعين معنى عربيًا لم يطرقه شاعر غربي.

يا لله! أهكذا تفعل الغيرة والتحدي، تلهب الحماس، وتشعل العزائم، لتصنع الإعجاز والمستحيل؟! هكذا تفعل الغيرة على الهوية واللغة والانتماء!

تكدح وتتعب وتنصب لتنال الظفر على متحديها وندها، ولم يكن يدرك الكيلاني وقتها أن ما حفظه ووجده ورد به وكشف عنه، ليس أداته للظفر والانتصار على من ناصب لغته العداء فحسب، وإنما هو الإسهام العظيم الذي جعل من هذا الشاب الأديب كامل كيلاني، رائدًا لأدب الطفل في أمة العرب.

بل كان النابغة كامل كيلاني، الذي قال عنه المفكر الجسور أنور الجندي:

"كم كشف لي من آفاق في الأدب العربي ثروة خصبة لم تعالج بعد! ما من مذهب علمي أو نظرية في النفس أو الاجتماع حدثته عنها، إلا وكشف لي عن أصلها وجذورها في أدبنا العربي وتراثنا الإسلامي، كان الرجل منهومًا في القراءة، لديه علم غزير وعمق في المطالعة، وحصيلته من تجربة الحياة الأدبية ضخمة"

وقال عنه أمير الشعراء: "إنه كعقرب الثواني، ليس إلا طاقة حية تنفذ من الأدب والذكاء والفهم، طلي الحديث إلى أبعد حد، نافذ البصيرة إلى غير ما مدى".

* * * *

بين النقد والتحطيم

إن النقد شيء والتحطيم شيء آخر، ومن الفقه والبصيرة أن تُميز بين الأمرين، فلا ترفض رأي الآخرين فيك بحجة أنهم مثبطون محبطون، فالنقد ضرورة حياتية، نُبصر منه عيوبنا ونقائصنا، فنسعى إلى البرء والاستشفاء منها.

والنفس المريضة هي التي لا تُبصر عُيوبها، وتنظر لذاتها دومًا بعين الكمال، ولا تقبل أي نقد يوجه لها، وتهوي المدح والإطراء، وتضيق بالنقد، وتأنف ممن يُذكرها بشيء من نقائصها.

وأمثال من يمتلكون هذه النفس، صادفتهم في عالم القلم، إن أحدهم يُحب أن يسمع ليل نهار من يمتدحه في أسلوبه وعباراته وعرضه ومفرداته، ويصير هذا المادح أحب الناس إلى قلبه، بينما يحظى بالبغض والنفور ممن يقدم على نقده، وتبصيره بخلل في الصياغة أو ضعف في العبارة، إن إشاراتك وملاحظاتك تصدمه، فلا يجد غير غروره ليواجهها به، فيتخيل أنك تحسده أو تحقد عليه، أو أنك لا تحب له التفوق والتميز.

عايشت هذه التجربة مع أحدهم، كان مبتدئًا لا يحسن الكتابة، ولا يعرف كثيرًا من فنون المقال وحرفية الصياغة، إنه يُحب أن يكون كاتبًا، وكان كثيرًا ما يبدي إعجابه بما أكتب، وحينما يَقرأ يكون تعليقه على بعض ما أخطه: (نفسي أكتب كده.. نفسي أملك المفردات دي)

ومرت الأيام، وبدأ يكتب، فشجعته ونشرت له بعض ما كَتب، حتى يكون دافعًا يولد فيه الثقة بالنفس، ولم أشأ أن أنقده في البداية، حتى لا يتسرب إليه شيء من إحباط، ولاحظته في كتاباته، فوجدته يتحدث في أمراض النفوس وآفاتها وتنمية القدرات والطاقات، ويهوى الاستشهاد بأسماء المفكرين الغربيين والزج بهم في فقراته، ويظن أن هذا علامة الفكر وشارة الثقافة، حتى أنه لا يرى هذا الميدان إلا بعيون غربية، مع أن أغلب ما يتحدث عنه، قد عالجه الإسلام بتراثه ورجاله بالقدر الوفير، فلم العزوف إذن عن تراثنا وإغفاله؟! إن التنوع مطلوب، وذكر تجارب الآخرين عمل يُفيد المعرفة الإنسانية، ويمتع النفس المثقفة، ولكن تجاهل هذا التراث العظيم خطأ كبير وغفلة مفرطة، وهو ما لفت انتباهه إليه، حتى تكون كتاباته شاملة ملمة، ولكني لم أكن أعلم أن هذا التوجيه البريء البسيط، سيلهب دخائله كسهم مسموم فاجأه بين وابل الإطراءات والمدائح التي تنهال عليه من معجبين لا يعرفون ولا يفقهون، وأكثرهم أنصاف متعلمين، لا يذكر أحدهم من نفسه أنه أمسك في حياته بكتاب يقرؤه أو مقالةٍ يتعلم منها. وحينما ناقشته، صارحني أن رأيي لا يُعجبه ولا يَقبله، وكانت ملامح وجهه متعجرفة خالية من كل ذوق.

علام هذا الغرور، وأنت ما زلت في بداية الطريق؟! ومع من؟! مع من كانوا بالأمس يشجعونك، وكنت تحلم أن تمتلك ما يمتلكون!. كيف

يكون حالك إذن لو صرت كاتبًا مشهورًا يعرفك الناس ويشيرون إليك بالبنان؟!

أما أنا يا عزيزي فقد تعلمت مبكرًا، أن الكبر يضر أول ما يضر بصاحبه، ويَجلب له الخَسارة، ويُفوت عَليه فُرص النجاح والتوفيق.. وكم يكون محظوظًا ذلك الذي يَجد من يُوجه إليه نقدًا، أو يبصره بعيوبه وسلبياته التي لا يراها من نفسه، حتى يُعالجها ويتلاشاها كخطوة فاعلة نحو الكمال المنشود.

وهو المعنى الذي أدركه أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب)رضي الله عنه حينما سارع بالدعاء لمن نصحه وأرشده ونقده، بل ونعته بأخيه، واعتبر هذا النقد هدية منه، فقال: "أحب إخواني من أهدى إلي عيوبي"

لماذا لا نتمثل فقه عمر رضي الله عنه وننظر للأمور نظرة تعد النقد مَكسبًا مُفيدًا، أي أنك أنت المستفيد الأول، وكم يكون واقعيًا أن يدرك الإنسان أنه غير كامل، وأن به كثيرًا من العيوب، منها ما يراه ويعلمه، ومنها مالا يعلمه.

والمرء لا يرى من نفسه ما يراه الآخرون، ومن ثم.. كان بالضرورة أن نجعل من عيون الآخرين شموعًا تُضيء لنا ما جهلنا في أعماق نفوسنا، إن النقد هو الطريق الأمثل لمعرفة كل الأذواق، ومن ثم إرضائها، وتحصيل ما

تتكيف معه الرؤى المتباينة، إنها حقائق في طباع الإنسان، وعدم إيمانك بها نقص وتحد للطبيعة، تمامًا كمن ينطح الصخر ولا ينال إلا شج رأسه.

ولكاتبنا الألمعي الفريد نقول: إن ما فعلته ليس من فعل الأذكياء، ولا من أخلاق الكتاب الكبار، الذين بهرت أقلامهم الدنيا، وهم يعترفون بالفضل لنقد الآخرين.

ولعل الأستاذ (نجيب محفوظ) يتناول هذا الموضوع، ويشير للسلوك السوي الذي أجدى بنا أن نقابل به كل من ينتقدنا، ويوجه لنا رأيًا لا يعجبنا ولا تقبله نُفوسنا، فيقول:

"أهتم بالنقد وأدرسه جيدًا لا سيما ما يكتب منه عني، سواء كان معي أو ضدي لا فرق، وأعكف على درس ما يوجهه إلي من نقاط، وآخذه بموضوعية وطيب خاطر، أي إنني لا أرفضه، ولا أبادل صاحبه عداء بعداء، بل أكن له احترامًا وتقديرًا خاصين، لأنه اجتهد وثابر، وحاول أن يقدم رؤية ما، لا يهمني بعد ذلك أن جاءت لصالحي أو رافضة لعملي، شريطة ألا يأتي بذيئًا مترخصًا"

ويقول: "إن العديد من المقالات كتبت ضد أعمالي، -بل توجد في ذلك كتب- وكلما قابلني نقد مضاد، قابلته بعزيمة مضادة أقوى منه، فقررت بإرادة من حديد أن أقرأها قراءة موضوعية، كأنها من شخص لآخر، وأن

أستفيد منها ما يمكن الاستفادة منها، وصممت ألا تسوء العلاقة بيني وبين ناقد ما، فالناقد قد يقوم بواجبه، والدخول معه في معركة يتعبه ويصعب مهمته، فأنا صديق لنقادي، وهي مسألة تحتاج إلى جهاد طويل مع النفس، إن أي نقد في الدنيا –ثق في هذا– لن يرفع إنسانًا أو يخفضه درجة عما يستحق، ليس هناك إنسان لا يسوؤه ما يوجه إليه من نقد، لكن العبرة بالموقف الذي يتخذه من هذا الناقد، وإلا كان فاقدًا للإحساس.

من الخطأ أن يُبهرنا النجاح، ويتوج رؤوسنا بالغرور، وإلا فمن ينقذنا من اليأس ساعة الإخفاق؟"

وهي نفس النصيحة التي نصح بها (ثروت أباظة) حينما جاءه مغضبًا محنقًا يسب ويلعن أحد النقاد الذين تناولوا روايته بنقد شديد لم يُعجبه، فإذا هو يقول له في هدوء:"هون عليك، أتريد أن تكتب ولا تسمع إلا مديحًا، إننا لو أرضينا نصف قرائنا لبلغنا أقصى غايات النجاح"

وكان الأستاذ (أحمد أمين) شديد الخوف على سمعته، ويتألم أشد الألم من كلمة تنشر إذا مست خُلقه، ولكنه كان كما أخبر عن نفسه: واسع الصدر جدًا فيما يمس أراءه وأفكاره، وليس يحزنه نقد كتبه ولا نقد آرائه، بل يرتاح لهذا ويغتبط به إذا اقتصر على حدود الرأي والفكر، ولم يتعد إلى حدود الخُلق.

إن لينكولن كان يقول: "إذا أدرتم أبصاركم في الوطن ورأيتم لي فيه عملًا جليلًا، فاذكروا الذين كانوا يخالفونني في الرأي ويعارضونني، لقد كانوا من ورائي سياطًا تلهبني ومن أمامي أضواء تنير لي الطريق" وهذا التعامل الهادئ مع النقد، جعل صاحبه يصعد للقمة، ووهبه القدرة التي أرضى بها كل الأذواق عن إنتاجه وأدبه، من خلال ما وجه إليه من نقد وملاحظات، وظفها بطريقة إيجابية بناءة، فهل يا ترى، يستطيع المغرورون أن ينجحوا ويتميزوا، بعيدًا عن عيون الآخرين؟!

وكان الأستاذ الكبير (علي الطنطاوي) له فلسفته الخاصة في النقد، إذ كان يقول: "أرى أن الذي يمدحني بمقالاتي يحقرني، لأنه لا يعلم أنها درهم من خزائن نفسي المفعمة بالذهب، فهو يقول لي: إن الدرهم كبير منك لأنك فقير، ولكن الذي ينقد مقالاتي ويتنقّصها يقول لي: إنك غني فالدرهم قليل منك، إن هذه المقالة حقيرة لأنك أنت عظيم.

لقد تعلمت هذه المسألة من عهد قريب فصرت أحب النقد، وكنت أجهلها من قبل فأميل إلى الثناء والتقريظ."

فرق كبير بين النصيحة والتعقيد، فكما أمدح فيك صلابتك وصمودك في وجه من يهدمك ويحبطك، أعيب عليك رفضك للنصيحة، وصدك عنها، وعدم قبولها، بل تكاد لا تميز بين المحبطين والناصحين، وأن تضع الطرفين في

خندق واحد، ومهما كنا أذكياء موهوبون، ففي حياتنا كثير من العيوب التي لا يمكن أن تراها أعيننا، ولا تبصرها إلا عيون من حولنا، وهي الأعين التي لا غنى لنا عنها حتى نُبصر الطريق الصحيح.

* * * *

الأقلام البائسة

إحساس عظيم بالحرقة والضياع، حينما تهب حياتك للقلم، وتنتظر أن يكون سبيلًا لرفعتك وعلو مقامك، واعتراف الناس بعبقريتك، وسيادتك في مجتمعك، ثم تراه بعدما أفنيت فيه عمرك، ووهبت له أيامك، لا حظوة له، ولا اعتراف به، ولا تقدير لمداده، ولا مكانة يرتقيها. حينما ترى المجتمع ساهيًا عنه غير مدرك لقيمته، أو ملتفتًا لبراعته، ساعتها فقط.. يجتاح قلب الأديب هم عظيم، وإحباط جبار، وقنوط عظيم، ويأس لا حدود له، من حياة تراها العين مكللة بالبؤس والجزع.

ساعتها فقط.. تسمع نداءات من أعماق النفس تدعوك أن تكفر بهذا القلم، الذي ما كنت تظن يومًا أن الحياة يمكن أن تستقيم بدونه، وأن الروح يمكن أن تلبث في الجسد في غيابه، صار اليوم منبوذا مكروهًا لا رغبة فيه، صار يواجه دعوة تعلن عليه الحرب والهجر، وتحذر منه القاصي والداني، وتدعي أنها كشفت حقيقته البائسة، ومقداره الحقيقي من الهشاشة والضعف.

إن النفس في بدايتها لطلب الأدب تأخذها النشوة، وتدفعها الرغبة، في هذه الطريق الذي تهواه ويملك عليها كل جوانحها، فتظل تصول وتجول وتعطي وتمنح، دون النظر لعطاء ومقابل، واهبة وقتها وروحها لذلك العشق الكبير، الذي سيطر على جنبات النفس، وما أن يمر العمر، وتتشبع النفس

من هذا العشق، فإنها لا تمله، ولكن.. تبدأ عين صاحبها تنصرف إلى أشياء أخرى خارج دائرته، فتُعمل بصرها فيما حولها ومن حولها، ثم يرتد بصرها إلى موقع قلمها، فترى أنه مهضوم حقه، منكر فضله، مهدر مقامه، فتصاب بيأس كبير، ويُخيم الحزن في سمائها فلا يتركها حتى تظلم صفحتها، فتنعي على الأدب حالها، وترجع إليه أسباب ازدرائها، في زمن لا يقيم للأدب قيمة ولا وزنًا.

أحاول هنا أن أعرض بعضًا من هذه النماذج التي كفرت بهذا القلم، حينما تنكر لها الزمان، ولم يعرف قيمة أقلامها وما تكتبه من حولها من الناس، فأهملوهم واستقلوا بهم، ولم ينزلوهم منازلهم، في الوقت الذي كان من هو دونهم، ينال أرفع المناصب، ويحظى بأكبر الجاه وأعلى الرتب.

هذا (أبو حيان التوحيدي) الذي أحرق كتبه وتراثه الكبير النفيس حينما أصيب بالتعاسة والخيبة، لقد كان فيلسوفًا متصوفًا أديبًا بارعًا من أعلام القرن الرابع الهجري، نشأ يتيمًا فقيرًا وعانى شظف العيش ومرارة الحرمان، وانتقل بعد موت والده إلى كفالة عمه الذي كان يكرهه ويقسو عليه، ولما شب امتهن مهنة الوراقة، التي أتاحت له التبحر في العلم والمعرفة، فصار موسوعي الثقافة، وأراد أن يغير من حياته، ويخرج من غياهب فقره، وأن يحظى بعناية الأمراء ورعاية الوزراء، فاتصل بكثير منهم رجاء أن يكافئوه

على إنتاجه وعلمه، لكنه كان يعود بعد كل هذا صفر اليدين خائب الآمال، فأصيب بالإحباط واليأس والنقمة على الحياة ومن فيها، فلم يجد سبيلًا يُرضي به نفسه البائسة إلا أن ينتقم من كتبه التي رأى أنه لا نفع منها، حيث لم تجر عليه أي شيء، كما رأى أن يضن بها على من لا يعرفون قيمتها ولا يقدرون مقامه، فجمعها وأحرقها ولم يسلم منها غير نذر يسير نقل قبل الإحراق.

كان هذا في القديم، أما في العصر الحديث، فإننا نجد الأستاذ الأديب (محمد السباعي) والد الأديب الوزير يوسف السباعي، وكان يعمل مدرسًا موفور الرزق، وينتظره كما قيل طريق طويل من الطموح، لكنه ترك ذلك كله وانشغل بالأدب، وتفرد له وأخلص لندائه، وتحرر من كل قيد تفرضه عليه الوظيفة، وتعوق حبه له واهتمامه به، وبعد مشوار حافل، وعطاء مميز، وحضور ملموس كانت صرخته المدوية التي أثارت العاطفة، وتركتها تموج في بحر خضم من الحزن والأسى:

"وأصبحت حرفة القلم عندي بعد ما كان لها في سالف الزمن من اللذة والسرور كاسفة حزينة، جافة جدبة، ناضبة مقفرة من الطرب والأنس، بل من العزاء والسلوى، وأصبح القلم في يدي أشد من الطرب والأنس، بل من العزاء والسلوى، وأصبح القلم في يدي أشد بؤسا ومسكنة من المزمار في يد الشحاذ المتسول، ترى نغمه أقرب إلى الثكلى منه إلى رنة المسرور."

ويقول في مقام آخر: "انقطعت للأدب سنين عدة وأمكنني أن أعيش عيشة ليست سواء كثيرا من عيشتي الحالية، وكنت أعتقد بادئ الأمر أنه سيجيئ يوم أربح فيه من الأدب ما لا يقل عن راتب أكبر موظف في الحكومة، ولكن هذا الحلم كان سرابًا خادعًا"

وقال عنه الدكاترة زكي مبارك: "كان السباعي من أهل التضحية في سبيل الأدب، ضحى بمستقبله وطمأنينته في بلد لا ضمان فيه لحملة الأقلام، ولكن في أي عهد كانت هذه المخاطرة؟ كانت في عهد مظلم يحيا فيه الصحفيون والمؤلفون والمترجمون تحت رحمة العوام وحلفائهم من أشباه الخواص"

وإذا كان زكي مبارك يرثي مصاب السباعي، فكأنه يرثي نفسه ويواسي حاله، فقد كان من هؤلاء الذين أصابهم، هذا الإهمال وتعرضوا لخيبة الأمل، بعدما ضحوا وبذلوا وأنتجوا وأبدعوا.

ولكن عامل التجاهل لم يستطع أن يقضي عليه، لم يلق زكي مبارك بالقلم من يديه أو يمزق كتبه أو يحرقها كما حرقها التوحيدي، لأن إيمانه بنفسه وثقته الكبيرة في قدراته، كانت تفوق كل الحدود، لقد شكا يومًا لقارئه قلة تقديره فقال: "إن راتبي في وزارة المعارف ضئيل، وأنا أكمله بالمكافأة التي آخذها من (البلاغ) أجرًا علي مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس

يديه في الحبر الأسود، إن بني آدم خائنون، تؤلف خمسة وأربعين كتابًا منها اثنان بالفرنسية، وتنشر ألف مقالة في البلاغ وتصير دكاترة ومع هذا تبقي مفتشًا بوزارة المعارف"

إن (زكي مبارك) يؤكد أن النجاح في الأدب للكثيرين من الكتاب والأدباء، قام على سِناد من العصبيات الممثلة في الجمعيات والأندية والأحزاب، التي تسببت في شهرتهم، وقد كانت أهلا للخمول، ولو أنها واجهت الحياة الأدبية مجردة من هذا الدعم من حلفائها السياسيين الحزبيين، لكان مصيرها الإهمال، قال هذا فيما قاله لطه حسين: "أنت لم تترك حزبًا إلا خدمته، ولا جريدة إلا توددت إليها"

ثم يعقد المقارنة بين حاله وحال أستاذه، فيؤكد على هذا المعنى مرة أخرى: "قضيت دهري بلا نصير ولا معين، وسأظل كذلك طول حياتي، لأقيم على أن من يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع"

* * * *

على خطى العباقرة

اكتب من أجل الكتابة، من أجل عشقك للإبداع، لإيمانك أن الحياة إبداع، وأنك لابد أن تساهم فيها بنصيب.. ليس شرطًا أن يشهد لك من حولك أنك مبدع، يكفي أن ترى ذلك من نفسك فتؤمن بإمكاناتك وتثق فيها.

لا تنظر لإبداع العباقرة نظرة القداسة، فيحجب تقديرك لهم ما يمكن أن تقدمه، فتخاطب نفسك خطاب اليائسين؛ ما قيمة ما أكتب بجوار ما يكتبون؟! ليس في الإمكان أبدع مما كان!

والصواب أن تجعل إنجازهم حافزًا لك ليس أكثر، فلعل في نفسك شيئًا كبيرًا لم يقدر له الظهور بعد.

عندما بدأ (نجيب محفوظ) حياته الأدبية، وجد نفسه في ميدان رهيب يجول فيه عمالقة النهضة الأدبية كالعقاد وطه حسين وهيكل والحكيم وغيرهم من الأدباء، فكان يقول: "كنا نشعر حقًا أننا أمام أهرام كبيرة وعمارات ضخمة، ولكن هذا لم يمنعنا أن نجرب حظنا وأن نقتحم الميدان، بل لعل وجود هؤلاء العمالقة في أيامنا قد أغرانا بالاجتهاد، ولم يدخل في قلوبنا اليأس، لأن الإبداع.. (الخَلق يحفز على الخَلق)، وأظن أن مهمة الذي يدخل ميدانًا من جيلنا الحالي، أخف بكثير من مهمتنا أمام

هؤلاء العمالقة، ولو جئت أنا من جديد الآن ووجدت نجيب محفوظ، وغيره من كتاب الفن القصصي- بكل إنجازاتهم، لكان شاغلي الشاغل أن أحاول الوقوف غير واطئ القامة أمامهم، أحاول تجاوزهم لو استطعت، إن جيلنا لو كان قد خاف من عمالقة الميدان أيامها، ما كنا كتبنا كلمة واحدة"[1]

في كثير من الأحيان تنتابني الرغبة القوية في كتابة موضوع بعينه، وسرعان ما أجد من الكبار من تناوله وأدلى فيه بدلوه، فتفتر عزيمتي التي كانت متوقدة، وأقول لنفسي: ماذا عساي أن أضيف أو أبتكر وقد تحدث فيه فلان، وكتب فيه علان، ولكن إيماني باختلاف الأذواق، وتباين الحس من شخص لآخر، يردني ردًا، ويحفزني أن أستمر فيما رغبت فيه.

وصورة أخرى، حينما يُخيل إلي أني أبدعت شيئًا كبيرًا بلغ غايته في الحبك والسبك، ثم يستقر في دخيلتي أن هذه النظرة ستتغير بمرور الأيام، لتصيبني الدهشة فيما بعد وأنا أتساءل: كيف كتبت بهذا الأسلوب؟ وكيف صِغت هذه الصياغة؟! كان الأولى أن تكون هذه الجملة كذا، وهذه العبارة كذا، ومع هذا لا بد من اليقين بأن الإنتاج المبكر هو البداية التي تصل بها للنهاية، ولن تستطيع الوصول للنهاية إلا إذا كانت هناك بداية.

---

١ – أنا نجيب محفوظ – إبراهيم عبد العزيز مكتبة الاسرة

ونجيب محفوظ نفسه عندما بلغ أشده واسترجع بداياته الأولى، سخر من أسلوبه في روايته الأولى (عبث الأقدار) التي نشرت له وقال: "كنت يومها أظن أنني صنعت شيئًا عظيمًا حقًا ومرت بي الأيام فإذا بي أراها (عبث أطفال) مش عبث أقدار!

وما أكثر ما يملأ المرء زهوًا لو علم أن أحد العباقرة يتابعه ويعجب بكتاباته ويقرأ له، إنه دافع يثير غبطة غزيرة في النفس، إنه يحفل بكلماتك، لقد أصبح لها قيمة، إن عقله الجبار يقف منحنيًا أمام سطورك! ففي الخمسينيات وبعد سنتين من تخرج الشيخ الغزالي، كان في مصر ما يسمى بالمؤتمر الإسلامي، تولى أمانته العامة القائم مقام (أنور السادات) وقتها.

وحدث أن وجه المؤتمر دعوة إلى الكتاب والمفكرين المسلمين ليقوموا بعمل ما في خدمة الرسالة الإسلامية، وضم المدعوِّين اجتماع تمهيديٌّ كان من بين رجاله الأستاذ الدكتور (محمد يوسف موسى)، الذي نظر فيمن حوله فلم ير الشيخ محمد الغزالي، وكان للشيخ الغزالي وقتها بضعة عشر مؤلفًا في خدمة الدعوة والدفاع عنها.

وكان الجمع يضم عددًا من علماء الأزهر، وكبار الأدباء، وما كان الشمل يلتئم والعمل يبدأ، حتى قال الدكتور (محمد يوسف موسى) للسادات -أمين المؤتمر- بصوت مسموع: "أرى أن يكون معنا في تحقيق أهدافنا رجل ليس بيننا الآن، الشيخ محمد الغزالي"

ويعلق الدكتور موسى على الموقف قائلًا: "وما كدت أنتهي من قولي حتى خيَّم على المجلس صمت شامل، طال فترة حتى أحسست بالحرج، وما أغراني بالكلام إلا أن هناك أزهريين كثيرين، اعتقدتُ أنهم سوف يؤيدونني! لقد لاذوا بالسكوت جميعًا!

وما أنقذني من الخجل إلا صوت الأستاذ (عباس محمود العقاد)، وهو ينطلق أجشّ على عادته: نعم أنا قرأت لهذا الشاب، وينبغي أن يكون معنا، وعندئذ تحرك جمهور المشايخ وأثنوا على الشيخ وأيدوا وجوده.

ثم يثني الشيخ الغزالي على من شجعه، ويظهر في كلماته غبطةً بقراءة العقاد لمؤلفاته وهو الكاتب الكبير، حيث يقول: "ومن المفيد أن أذكر أنه لا علاقة بيني وبين العقاد، ولم أحضر للكاتب العملاق ندوة أو تربطني به صحبة، وإن كنت من أشد الناس إعظامًا لأدبه وعلمه."[1]

* * * *

(1) قصة حياة – الشيخ محمد الغزالي.

الشواشي العليا للبرجوازية

لن نمل عنكم أبدًا، سنظل نقرع أسماعكم ووجدانكم، سنظل نحاصركم ونصارعكم حتى تجف أقلامكم، ويتبخر مدادكم، وتطووا صفحاتكم، وتتركوا حدائق البيان فلا يعود ينبت فيها بذور أشواككم.

نعم إنهم أولئك المتقعرون المتشدقون في كتاباتهم وأساليبهم، الذين يعشقون التعقيد ويهوون التكلف، حتى أصابونا بإعياء شديد كاد يقضي على حبنا للقراءة وبغضنا للكتب.

على قهوة (محمد عبدالله) جلس (زكريا الحجاوي) في جمع من الأدباء والشعراء والفنانين والموهوبين، وأخبرهم جميعًا أنه بصدد إنشاء مجلة أدبية جديدة باسم (الميزان)، ويريد من الجميع أن يخصوها بإنتاجهم، والتفت إلى الناقد الكبير (أنور المعداوي) وارتجاه أن يخص العدد الأول بافتتاحيته، فتهرب أنور ووعده بمشاركته بعد صدور المجلة، كان الولد الشقي (محمود السعدني) وقتها شابًا في مقتبل حياته الأدبية، وكان يهوى مجالسة هؤلاء العظماء، على قهوة محمد عبدالله، وسارع إلى اغتنام هذه الفرصة، فأرسل قصة قصيرة لتنشر في مجلة الميزان، التي دعا صاحبها الجميع أن يشارك فيها، ومع صدور العدد تصفح السعدني ورقاته، فلم يجد فيها أي أثر لقصته، فطوى المجلة حزينا آسفا على هذا الحرمان، وبينما هو جالس، حاول فتح المجلة مرة

أخرى ليقرأ فيها شيئًا يزيده معرفة وعلما، أو يسري عنه ويخرجه من همه، فإذا به يقرأ ما يزيده همًا على هم وضيقًا على ضيق.

لقد قرأ في المجلة بحثًا للأستاذ (بكر الشرقاوي) من (٨) صفحات، وبذل في قراءته جهدًا كبيرًا، لكنه لم يفهم منه أية كلمة، فإذا به يخيل إليه أنه ليس أديبًا، ولن يكون أديبًا، لأن كلامه مفهوم يفهمه أي طفل وأي إنسان ذو حظ يسير من العلم، وأخذ يقول في نفسه: هذا هو الأدب الصحيح لا يفهمه إلا الأديب الذي كتبه، وكان البحث مليئًا بتعبيرات من نوع "الاستبطان الاستغلاقي والشواشي العليا للبرجوازية الكومبرادورية، التي تحقق مصالح طفيلية من أجل ضرب النمو الاستاتيكي والديناميكي على السواء" فإذا به يطوي المجلة، ويستأنف حالة حزنه وضيقه حتى جاءه في المساء الأديب والناقد الكبير أنور المعداوي، الذي تلمس فيه بعض الضيق، ولكنه لم يسأله ما الذي يحزنه؟ وأخذ يحدثه عن عدد مجلة الميزان، ثم كانت المفاجأة الكبرى للسعدني من المعداوي حينما أخبره الأخير: بأنه لم يفهم من بحث بكر الشرقاوي حرفًا واحدًا.

فبدأ السعدني يستعيد ثقته بنفسه، لأن حاله وافق حال أديب كبير له ثقله ومقامه كالمعداوي.

ولعلنا نستشف من هذا الموقف بُعدا مهما وهو، أن المتقعرين لا يفسدون أذواق القراء ويصيبونهم بالملل والحيرة فقط، وإنما يحبطون الأجيال الصاعدة، التي تتلمس طريقها إلى عالم الأدب، ولا تمتلك الأدوات التي تؤهلها للحكم على الأساليب والأقلام والأذواق القويمة.

إن تعقيد العبارة، وغموض الكلمة، وتقعير الألفاظ، آفة كثير من الأدباء والمفكرين والكتاب، وهو عيب كبير يجب أن يتنبه له الكاتب، ويعرض عنه كل الإعراض، وللأسف نجد بعضهم لا يؤمن أن تكون العبقرية في ذروتها إلا حينما يصاحبها تقعر الكلمات وغموض في الألفاظ، وهناك طائفة تخلط بين التعقيد والتعمق، والسطحية والتبسيط، ومنهم من يستطيع عرض فكرته بالأسلوب الواضح المفهوم، لكنه لفهمه السابق يُعرض عنه ليلجأ لهذا الأسى الذي يجهد العقول، ويُبدد التركيز، ويضيع جمال الأفكار.

وحال هؤلاء كحال الطبيب مع (أبي علقمة النحوي) وقصتهما الشهيرة حيث يُحكى عن أبي علقمة النحوي وهو من المتقعرين في اللغة واستعمال غريب الكلام واللفظ، أنه دخل إلى طبيب فقال: إني أكلت من لحوم هذه الجوازل فطسئت طسأة فأصابني وجع بين الوابلة إلى أدية العنق، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الخلب فألمت له الشراسف فهل عندك دواء؟ فقال له الطبيب: خذ خربقًا وشلفقًا وشبرقًا، فزهزقه وزقزقه واغسله بماء

روثٍ وأشربه بماء الماء، فقال أبو علقمة: أعد علي ويحك، فإني لم أفهم شيئًا، فقال له الطبيب: لعن الله أقلّنا إفهامًا لصاحبه، وهل فهمتُ منك شيئًا مما قلتَ؟!

يقول الحكيم: "العقاد رحمه الله كان له قيمة فكرية وأدبية كبيرة، لكنه كان يتعمد الصعوبة، الكلمة السهلة يرمي بها جانبًا، ويستخدم كلمة صعبة بدلًا منها، وأظن أن هذا يرجع إلى رغبته في إثبات ثقافته، وأنه يفهم أكثر من المتعلمين، كانت كتابته رحمه الله فيها تعال تمامًا مثل كاتب يكتب حتى لا يفهمه أحد، وإذا قيل له: إن ما كتبه فهم بسهولة فإنه يحزن.

لقد كان هدفي أن أكون بسيطًا وتم ذلك بتلقائية دون أن أتعمده، وقليل من فطن إلى أن الأسلوب هو روح وشخصية، وكان أحد أصدقائي الفرنسيين يدعونني إلى ترك الكتابة بالفرنسية لا لأني لا أحسنها، بالعكس لأنه رآني أتكلفها وأنمقها وأستخدم تراكيب موضوعة وبلاغة محفوظة، مما حبس روحي وسجن شخصيتي في أغلال من الكذب والتصنع، لقد أصاب الحقيقة، لا يخلق الأسلوب الحق إلا الكاتب الصادق في شعوره وتفكيره إلى حد ينسيه أنه ينشئ أسلوبًا، البلاغة الحقيقية هي الفكرة النبيلة في الثوب البسيط، هي التواضع في الزي والتسامي في الفكرة ، وهكذا كان أسلوب الأنبياء"

لم يكن الحكيم متجنيًا في وصفه لأسلوب العقاد، ولم يكن وحده من يستخشن طريقته في الكتابة، وإنما كان هناك غيره من كبار الأدباء يرون مثل رأيه ويقولون بقوله ويجدون حالتهم حاله، يقول الأستاذ ثروت أباظة: "لم يشق علي أن أقرأ الأيام وأنا في البواكير الأولى من العمر، وإذا كنت قد قرأت الأيام فما أيسر أن أقرأ ما كان قد ظهر حتى ذلك الحين من كتب توفيق الحكيم والمازني وتيمور، ولعل الكاتب الوحيد الذي شق علي هو العقاد رحمه الله، فلم أستطع أن أقرأ له إلا بجهد جهيد وعنت شديد، وقد ظل هذا شأني مع كتبه حتى الآن، ولكنني مع ذلك أقرأها معجبًا مكبرًا مهما تكلفني من المشقة لأنه العقاد، ولابد أن يقرأ للعقاد". وكان الحكيم أكثر صراحة في نقد أسلوب العقاد من ثروت أباظة، ولعل ما دفعه لذلك قرب السن، أو معاصرة الإنتاج ومضاهاته، ولكن هذه الصراحة لم تمنعه أبدًا من تقدير العقاد وإنزاله منزلته اللائقة به، كما كانت ليونة الألفاظ وسهولة التراكيب والعبارات، مما يمتدحه عميد الأدب العربي فيمن حوله من الكتاب والأدباء، نعم فطه حسين تمامًا مثل توفيق الحكيم في حب البساطة وانسياب العبارة، وسلاسة الأسلوب، لقد وصف أسلوب المازني بقوله: "المازني أديب مرح، يعشق الفكاهة والسخرية، وكان له أسلوب خاص في الكتابة يجنح فيه إلى اليسر، وقد ظن بعض قرائه أنه يستعمل ألفاظًا عامية، ولكن هذا الظن في غير موضعه، لأن ما يظنه عاميًا هو فصيح كل الفصاحة، غير أن جريانه على

الألسن وشيوعه بين الناس، قد يوحي بأنه عامي، وكان المازني يمقت الإغراب وينأى عن التعقيد، فهو يطلق نفسه على سجيتها لا يتكلف أبدًا"

أما طه حسين نفسه فكان على ذلك الطريق ويدرك تمامًا أهمية أن يكون الأسلوب واضحًا، حتى يعرف طريقه إلى عقل القارئ وقلبه، ويحدثنا الدكتور محمد الجوادي عن هذه السمة في أسلوب طه حسين ومعه أحمد أمين فيقول: "تميز أحمد أمين وطه حسين في كتابتهما بوضوح الفكرة، وهي من أبرز سماتهما التي حببت إنتاجهما إلى القراء، كما ساعدت بقدر كبير على استحواذ أعمالهما للاحترام والذيوع والخلود.. وغني عن البيان ما تميز به أسلوب أحمد أمين من وضوح وبعد عن المحسنات وعن التقعر معًا، حتى كاد بعض زملائه من الأدباء الكبار يخرجونه من زمرتهم بسبب البعد عن التقليدية، وليس من شك أنه كان بإمكان أحمد أمين أن يقدم لقارئه أسلوبًا مسجوعًا أو ممتعًا، ولكنه آثر أن يعطي الاهتمام الأول للفكرة والمعنى، وكان أميل للتعبير البسيط المعبر، أما نصاعة أفكار طه حسين وجلاؤها فهو الأمر الذي لا يحتاج إلى مزيد من الحديث عنه"

إن الشيخ الغزالي مع قوة علمه وثاقب فكره، كان سلسًا عذبًا يفهمه كل أحد، ويبلغ بمقصده قاع اليقين، وأما القرضاوي فلا يعتمد إلا اللفظ السهل والعبارة المفهومة، وأنا أقرأ لأسعد، وليس لدي وقت لأقرأ الألغاز،

ما أروع الوضوح وما أجمل السهولة!، كثيرون ذموا العقاد لأسلوبه المعقد، أما أنا فأغلب كتبه لا أطيقها لمشقتها على نفسي، وطه حسين لم ينح في أغلب مؤلفاته ما نحا في الأيام، التي كانت رائعة ممتعة، لقد كنت واحدًا من الجيل الذي أدرك دراسة كتب السلف في الأزهر، ولما سألت عن العلة من وجود هذه الكتب وعدم إيجاد كتب ميسرة؟ قيل لي: إن أغلب كتب العلم والتراث الإسلامي ألفت في العصور القديمة، فكان لابد من دراسة كتب مشابهة، حتى تستسيغ لغة هذه العصور، وتسهل عليك قراءة كل كتب التراث، لكن مهما كانت العلة، فإن النفس اليوم وغدًا وأمس لا تهفو إلا للكتب السهلة الأسلوب البسيط.

في كتابي دهاليز الكتابة؟ شددت على السهولة، وضرورة انتهاجها كأسلوب وطريقة للكتابة، وفي كتابي (اقرأ... رسالة الوحي الأولى) ذممت الأقلام المتقعرة، ونوهت أن يتجه القارئ للسهل من الكتب، حتى لا يكره القراءة جملة.

أما الحدثاء في عالم الكتابة، فاحذروا أن تتكلفوا أو تتحذلقوا أو تتقعروا في كتاباتكم، واجعلوا هدفكم دومًا، أن تصل الفكرة للأذهان بأسرع الطرق، لا أن يشيد الناس بلغتكم ومدادكم هو هدفكم الأكبر، وأنتم يا أيها القراء، أعلنوا للدنيا كلها رداءة الكتب المتقعرة، حتى ينتبه المؤلف بعد حبك

مؤلفة علميًا وتوثيقيًا، إلى سؤال مهم وقوي، وهو: هل صياغته سهلة، وأسلوبه مفهوم؟ أعلنوا ذلك مهما كبر حجم الكاتب وذاع صيته، لأننا نريد أن نيسر على الناس سبيلهم للقراءة، ونحفزهم على قبول المعلومة، والذين يقعرون لغتهم يشقون بهذا السبيل، وينحون عنه كل راغب فيه، إن أنيس منصور وهو من هو كان يكتب مقاله ثم يعطيه لساعي مكتبه، فإن فهمه أجازه ونشره وإن تعذر عليه فهمه أعاد صياغته من جديد، فقد كان يؤمن بأن السهولة أروع منهج يتبعه القلم خدمة للعلم والادب والفكر.

* * * *

لماذا يسرقون؟

ليس العجب أبدًا فيمن يسرق أفكار غيره، ويسطو على كتب أنداده وأقرانه من المؤلفين والمبدعين، فلربما أحب يومًا أن يكون مفكرًا أو مؤلفًا ذائع الصيت، ولكن ملكاته ومواهبه لم تسعفه، فلجأ إلى هذا السطو الشنيع، ليغطي هذا العجز الظاهر والضارب في أركان نفسه، ربما نعذره على هذا أو نجد له تبريرًا.

ولكن العجب الحقيقي ممن يملك أدوات الفكر والعلم والأدب والحفظ والشهرة، ثم يقدم على سرقة غيره من الأفكار والمواهب والكتب والأسفار والإبداعات، حالة حقًا غريبة ومثيرة تستدعي الوقوف عندها وتحليلها.

حتى أن طه حسين نفسه وهو الملقب بعميد الأدب العربي، ثبتت عليه السرقة الفاضحة، حين كان يسرق أفكار مرجليوث وغيره من المستشرقين، حتى أنه أحيانًا كان يلجأ للنقل بالحرف، كما ذكرت صحيفة الرياض: فكان من أمثلة الأخطاء التي تدل على النقل الحرفي لكتابات المستشرقين والترديد الببغائي لمقولاتهم، ما وقع فيه من أخطاء مضحكة، منها على سبيل المثال قوله: وقعت بين القيسية واليمنية معركة (مرجرات) ثم اتضح له فيما بعد أنها (مرج راهط) وهي معركة مشهورة يعرفها طلاب المرحلة الثانوية، ولكن

المستشرقين الأعاجم كانوا يكتبونها علي تلك الهيئة، فنقلها بصورتها وهيئتها دون تمحيص وقد علق الدكتور زكي مبارك على هذه السقطة فقال: "إن طه حسين قد دخل حديقة المستشرقين بالليل ليسرق ثمرة أو ثمرتين فصادفته هذه الثمرة المعطوبة"

كما هاجم شاكر ما كتبه طه حسين في كتابه المتنبي في ١٣ مقالة في جريدة (البلاغ)، تحت عنوان (بيني وبين طه) اتهمه فيها بأنه سطا على أفكاره وحذا حذوه، وقال: "إن كتاب طه حسين محشو بأشياء كثيرة تدل دلالة قاطعة على أن الدكتور طه لم يسلك هذا الطريق الجديد على كتبه في كتاب المتنبي إلا بعد أن قرأ كتابه"

وفي زماننا المعاصر وجدنا عددًا من شيوخ الدين المعتبرين، قد سرقوا وثبتت عليهم تهمة السرقة لأكثر من عمل، وهم علماء أفاضل ودعاة مميزون، ولهم ذكر وحضور وجمهور، وكتب شهيرة، وأسفار معروفة، مما يجعل المرء في حيرة شديدة يقلب معها كفا على كف.

ومنهم من نهب أقوال الأئمة الكبار ونسبها لنفسه، غير عابئ أن يكشفه أحد، وظنًا منه أن الناس لا تقرأ، وأنه ما عاد أحد يتصفح، وهو استهتار في الجرم يقضى على سمعة صاحبه.

ثم نعوذ بالله من الفتنة، فحينما يفتن البعض بمؤلف أو عالم أو مفكر ما، وتثبت عليه تهمة اللصوصية، ترى هؤلاء المفتونين لا يرعون لهذه

الأقوال، فاعتقادهم في سيدهم لا ينهدم ولا يتزعزع حتى لو رأوه على الخطأ بأم أعينهم.

فهذا يوسف زيدان كانت فضيحته كبيرة في روايته الشهيرة التي سرقها (عزازيل) ومع ذلك لا ينهدم ركنه، ولا يتصدع شخصه، ولا ينزوي وجهه، والدنيا كلها تهلل له، وتبشر به، وتستضيفه البرامج والشاشات، وهو اللص السارق.

والدكتور العلامة محمد رجب البيومي كان شاهدًا وراصدًا لبعض محاولات السرقة التي تنبئ عن ضعف الضمير العلمي، حينما رصد حالة كثير ممن كتبوا في السنة المطهرة وقد نقلوا عن الأستاذ فريد وجدي دون أن يشيروا إليه، وكأنهم رأوا أن عدم جمع مقالاته وفصوله في السيرة في كتاب مستقل يبيح لهم أن ينهبوا أفكارها دون الإشارة إليها، وإذا فعل ذلك من يتصدر للكتابة في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد جانب الأمانة التي هي من أبرز صفات من يتحدث عنه، وكان من المنتظر أن يقتدي بأمانة نبي تعرض لسرد حياته، وتمجيد أخلاقه.

وهو السطو الجريء الذي دفع الدكتور البيومي لجمع مقالات فريد وجدي في السيرة النبوية في كتابين صدرا يحملان اسمه، يقول البيومي: " فشفيت صدري من سارق أكب على تراث الأستاذ ونسبه إلى نفسه، وقد

افتضح أمره حينما جمعت هذه الفصول، وذاعت بين الناس في كتابين مستقلين لهما بريقهماالآخاذ"

ونحن الآن في حاجة لنقرر أن سراق الفكر هم أحقر أنواع السراق، والذين يسرقون منهم عن شبع وري، هم أخبث وزرًا وأشر فعلا، وتستعمر نفوسهم دناءة هائلة لا تفوق الوصف.

* * * *

كتب يعتز بها أصحابها

هل تعلم أن ليس كل ما يكتبه الكاتب يكون محببًا إلى نفسه، مقربًا إلى ذاته، لصيقًا بقلبه؟!

نعم فهناك بعض الكتب التي يكتبها أصحابها، يفضلونها على كثير مما سطروا وصنفوا، ولعل هذا يرجع لظروف وملابسات اقترنت مناسباتها بهذا الكتاب وموضوعه.

فيمكن أن يشعر الكاتب فيما أحبه من كتبه، أنه قد وصل فيه إلى ذروة نضجه وقمة استوائه الفكري، ويمكن أن يكون كتابه هذا، قدم فيه الجديد الذي لم يسبقه إليه ولا فيه أحد، ويمكن أن يكون قد كتبه في ظروف أو مناسبات أو أوقات وأماكن يحبها ويرتاح في وجوده فيها، وقد صار دوما يذكره بها وأيامها، ويمكن أن يكون هذا الكتاب المحبوب، يحمل في طياته معالم الجدية والرسالية، عن غيره من الكتب التي خطها الكاتب، ويرى فيها سطحية بادية، مجردة من العمق والتأمل والطرح الثاقب.

ويمكن أن يكون الكتاب أثيرًا لدى مؤلفه، لروعة موضوعه وأهميته للحياة وقضايا الناس، ويمكن للكتاب أن يكون قد خاض به كاتبه معركة وانتصر فيه وبه لفكرة أو مبدأ، أو جلى به شبهة، أو أظهر براءة تيار أو حزب أو فريق، أو أزال اللبس عن حقائق تاريخية مغلوطة، أو يعتز بكتابه، لأنه

الكتاب الذي أظهر قدراته المعرفية والأدبية، وصنع له اسما في دنيا الثقافة فاشتهر به وعرف بين الناس، أو كان هذا الكتاب حينما ألفه، قد أهداه إلى شخص يحبه وأثير لديه، ومن ثم علا قدره في نفسه.

ويمكن كذلك أن يكون هذا الكتاب، يحمل نظرية التحول الفكري التي طرأت على الكاتب، وكان فيه براءة مما سلف له من أفكار ونظريات وآراء، ومن ثم تراه حفيًا به، لأن فيه براءته مما كتب سلفًا من أفكار لا يرضى عنها بعد استقراره الفكري.

لقد كان الفيلسوف عبد الرحمن بدوي في بداية حياته، يكتب عن الوجودية ويروج للفكر الوجودي في الشرق، عبر مؤلفاته وترجماته المتعددة، ولكنه انتهى في أخريات حياته ليكون جنديًا مدافعًا عن الإسلام ضد منتقديه وخصومه، عبر كتابين نالا شهرة عريضة ذائعة الصيت، كما تُرجما لعدة لغات، وهما دفاع عن محمد صلى الله عليه وسلم ضد منتقديه، والثاني دفاع عن القرآن ضد الطاعنين فيه.

وكان بدوي نفسه سعيدًا بهذين الكتابين وبتأليفه لهما، وهو الذي له في المكتبة الثقافية أكثر من ١٥٠ كتابٍ، لكن هذين الكتابين، كان لهما حفاوة خاصة، واعتزاز كبير مختلف عن بقية كتبه، وحق له ذلك حينما يشعر أنه استطاع بهما أن ينافحَ عن دينه، ويكونا له حجة وجهادا أمام الله تعالى.

ويذكر أحد المرافقين له، أنه قاده مرة في باريس، ليذهبا إلى مكتبة تطل على نهر السين، لكي يرى بنفسه هذين الكتابين معروضين فيها.

وكان الشيخ الغزالي رحمه الله يعتز كثيرًا بكتابه فقه السيرة، لأنه كتب صفحاته في الروضة الشريفة بالمدينة المنورة.

وكان الشيخ القرضاوي رغم تنوع مؤلفاته، وتعدد كتبه التي تزدحم بها المكتبة الإسلامية، وتُرجم العديد منها إلى لغات عالمية، يعتز كثيرًا بكتابه (تاريخنا المفترى عليه) لأنه يرى فيه محاولة جادة وصادقة، للكشف عن حقائق التاريخ الإسلامي، التي تشع تسامحًا ورحمة وإنسانية في التعامل مع كل أمم الأرض، خصوصًا في ظل المحاولات المستمرة من جانب خصوم الإسلام في الداخل والخارج، لخلط أوراق التاريخ، وتشويه مسيرة الإسلام ووصف المسلمين بما ليس فيهم وإلصاق التهم بهم.

وكان الرافعي إمام البيان رحمه الله تعالى يعتز كثيرًا بكتابه (أوراق الورد) وفي ذلك يقول الأستاذ الفاضل محمد سعيد العريان في مقدمته للكتاب:

"وكان الرافعي (رحمه الله) يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج في أدب الإنشاء، ويباهي ويفتخر، وما أحسبه تعزى عن صاحبته بقليل، إذ تعزى بما لقي من النجاح والتوفيق في إنشاء أوراق الورد"

* * * *

المقالات المجمعة

شعرت بنوع من الانتقاص، حينما قرأ أحدهم كتابي الأخير الذي أصدرته تحت عنوان (آفات في بيت الزوجية) وقال لي معقبًا "تشعر أنه مقالات مجمعة"

وألحق أنه كذلك.. لكن نبرة الحديث تدل على أن هناك عيبًا خطيرًا وداءً ملموسًا، حينما يكون الكتاب على هذا الشكل، وتلك الطريقة البعيدة عن التصور العلمي الأكاديمي عبارة عن مقالات مجمعة.

وتذكرت هنا هذا الصديق الذي كان إذا عُرض عليه كتاب نظر في فهرسه وعناوينه، فإذا تبين له أنه كتاب بلا مباحث ولا فصول، رمى به واعتبره عبثًا وهراءً، ولا شك أن فعله وإعراضه، هو عين العبث وأصل الهراء.

بل تذكرت شيخًا من شيوخي، كان مولعًا بالتقسيمات البحثية، حينما عرضت عليه كتابي (معركة الداعية) وسألته عن رأيه فيه، فقال لي بما أشتم منه رائحة الاستخفاف: "أنا فهمت كتابك، انت بتجيب حتة من هنا وحتة من هنا، وبتتكلم يعني في إطار واحد، فقلت له: فعلا هوه حتة من هنا وحتة من هنا". ولا شك أن هذا هو ديدن الأدب، بل ديدن الكتابات الفكرية التي تحمل الروح، وتحرص على الإبداع، لأنها تستقي عبيرها من عزائم النفس

وعطاءات الروح، وإبداعات القريحة، فهي تنطلق من الجمال، وتكتب بالجمال، وتدون بالجمال، تدور فقط في هذا الإحساس بالجمال والخيال، ولا يحركها الثقل في التدوين، أو التكلف في البحث، أو الشعور بضيق التصنيف.

وإذا كان ديدن الكتاب الأكاديمي أنه شامل جامع، يمتع الباحثين ويروي غلة الطالبين، فإن الكتاب الحر هو كتاب الذوق والجمال والسحر، كتاب الوعي والوجدان والعاطفة، هو كتاب الإبداع والأشواق والإمتاع.

وكان أديبنا الكبير يدافع عن نفسه وهو يقول: "إنني مثل النحلة في البستان التي تتنقل هنا وهناك من زهرة إلى أخرى تمتص الرحيق وتخرج للوجود عسلا حلو المذاق."

وفي مشادة كلامية مع أحد الأساتذة في الجامعة الأزهرية حول داعية شهير، كان هو يمقته ويحطه، وأنا أحبه وأُعليه، فكان مما رماه به من الشبهات قوله: إنه لم يكتب كتابًا أكاديميا.

كنت وقتها صغيرًا بعض الشيء، لم تتسع مداركي العلمية، فلم أستطع الجواب، فلما توسعت في كتب الأدب، وصرت محققًا لاطلاع كثيف، تبين لي أن أغلب كتابات أعلام الفكر والأدب والدعوة على هذا المنوال الحر في الكتابة، و أن كل تراثهم لم يكن أكاديميًا، وإنما جله مقالات كتبوها وجمعوها في كتب أبهرت جماهير المثقفين، حتى أننا نجد هذا العلم الكبير،

وأديب الدعوة الساحر، وشيخ الإسلام في زمنه، شيخنا (محمد الغزالي) كانت كل كتبه مقالات مجمعة، تحمل بين دفتيها أفكار الإصلاح والتوجيه والدعوة، بل حملت هموم الأمة ومشكلاتها والدفاع العنيف عن مقدساتها.

وكثيرة غيره من الأقلام الفريدة المؤثرة، التي لم تكن تسلك إلا هذه الطريقة لإيمانها برونقها وخفتها وعمق تأثيرها على النفس والروح، ويبدو أنها أمزجة في التصنيف، فهناك من يهوى الروح الأكاديمية ككتب الشيخ القرضاوي، وهناك من يؤمن بأن الادب والأفكار والأطروحات ومشكلات المجتمع وقضاياه، لا يمكن أن يتم تناولها بأفضل من هذه الطريقة الحرة، التي لا تخضع لقيود وشروط.

ثم ما لبثت أن طالعت كلام الأستاذ المفكر الكبير الأستاذ (أنور الجندي) حول هذا الموضوع في كتابة (شهادة العصر والتاريخ) حيث يقول: "استطاع عدد غير قليل من الكتاب جمع آثارهم وإبرازها على هيئة مؤلفات أو كتب أو دراسات، حتى أنه يمكن القول بأن آثار أغلب الكتاب الكبار أمثال طه حسين والعقاد والمازني والزيات وجبران وميخائيل نعيمة وهيكل وسلامة موسى، قد بدأت في هيئة مقالات ثم نشرت في الصحف والمجلات في كتب، ولذلك أمكن لبعض الباحثين أن يقول: إن أدب الثلاثينات وما بعدها، كان أدب مقالات مجمعة، وربما امتدت هذه الظاهرة إلى اليوم، وإنه

فيما عدا الدراسات الجامعية والرسائل الأكاديمية، فإن كل آثارنا الأدبية مقالات مجمعة، وإن كان بعض الكتاب قد استطاع في ذكاء أن يربط بين المقالات المنوعة، وأن يبرزها في انسجام، وإن بعضهم الآخر عجز عن هذه المحاولة"

وإذا كانت الكتب الأكاديمية تستمد سطورها من العقل، فإن الكتاب الحر يستمد طاقته من العقل والروح معًا.

* * * *

كيف كانت البداية؟

باحث شهير وكاتب معروف وأديب بارز ومعلم حاذق ومحقق عاين كتب التراث وراجعها وحقق العديد منها، وكان من أشد المدافعين عن اللغة العربية الفصحى، ونادي بأن تكون لغة الخطابة والإذاعة والصحافة.

له أكثر من مئة كتاب مطبوع، تنوعت بين الفلسفة والتاريخ والأدب، منها تاريخ الأدب العربي (٦ مجلدات) تاريخ الفكر العربي ـ التبشير والاستعمار ـ الأسرة في الشرع الإسلامي ـ تجديد في المسلمين لا في الإسلام ـ العرب في حضارتهم وثقافتهم ـ التصوف في الإسلام ـ عبقرية اللغة العربية ـ العرب والفلسفة اليونانية ـ الإسلام والتاريخ ـ وكتب كثيرة في التراجم، وكتب مدرسية للمرحلة الابتدائية وأخرى للمرحلة الثانوية، في اللغة العربية والفلسفة والتاريخ.

نحن إذن أمام قامة كبيرة وعلم أعلم، ومنارة مدوية في عالم الكتابة.

نعم نعم.. ربما تكون الآن متشوق لمعرفة اسمه، لكنني لن أخبرك باسمه، حتى أزف إليه الطريق التي تسببت في جعله على هذا المستوى الكبير من العلم، والمكانة الضخمة ككاتب له ذكره.

كانت البداية بسيطة جدًا، يمكن أن ينالها أي طالب في مدرسة ابتدائية، ويمكن كذلك أن ينال من نتائجها ما ناله هذا الطالب الذي نحن

بصدد الحديث عنه، شريطة أن يكون هناك أستاذ على درجة من الوعي الكبير بضرورة التحفيز والتشجيع، واتخاذ خطوات لإيجابية وعملية في ميدانه.

نعم هذا ما فعله المعلم (نصار) مع هذا الطالب الذي صار فيما بعد كاتبًا مرموقًا وباحثًا لا يشق له غبار في الساحة الثقافية والأدبية والعلمية.

كانت البداية قد خطت بواديها عام ١٩٢٢م في بيروت، حينما كان صاحبنا في السابعة عشر من عمره، طالبًا في الصف الرابع من الدائرة الاستعدادية في الجامعة الامريكية، وقبيل عطلة نصف السنة، طلب الأستاذ نجيب نصار أستاذ اللغة العربية من الطلاب أن يكتبوا موضوعًا إنشائيًا طويلا عن الطيران، وأن يقدموه له بعد انتهاء العطلة مباشرة.

ولما بدأت عطلة نصف السنة، تبين للفتى أن الحالة الاقتصادية لأسرته، قد لا تسعفه أن يستمر في تعليمه الجامعي، ومع هذا فقد عني صاحبنا بموضوع الطيران عناية كبيرة، وقبيل انتهاء العطلة يسر الله على والده ومنحه المال المطلوب، لاستكمال القسط الثاني واستأنف دارسته في الجامعة.

وفي هذا اليوم ومع رجوع الطلاب جمع الأستاذ نصار موضوع الإنشاء من الطلاب، فكان منهم من سلمه ومنهم من اعتذر، وبعد بضعة أيام، رد الأستاذ نصار موضوعات التلاميذ، ولم يرد إلى صاحبنا موضوعه،

وبعد انتهاء الدرس قال الأستاذ لتلميذه: إنه قد أعطى الموضع لجريدة الأحوال لينشر بها، وكانت الأحوال في ذلك الوقت من كبريات الصحف، وبعد يومين أو ثلاثة أيام، صدرت الجريدة وفيها مقال التلميذ، الذي كان موضوعًا للإنشاء، وقد نشر لطوله في عددين متواليين، بل كانت المفاجأة أن نشرت أجزاء منه في الصفحة الأولى.

وتكررت الحادثة في نهاية العام الدراسي، حيث طلب نفس الأستاذ من الطلاب موضوعًا إنشائيًا عن صناعة الحرير، ولما كتب حمل موضوعه مرة أخرى إلى جريدة الأحوال، فنشرته وكانت المفاجأة فيه أكبر مما سبق، حيث جاء في صدر الصفحة الأولى وكتب عليه: بحث جليل في صناعة الحرير.

وكانت هذه هي البداية التي عرف فيها الطالب الصغير طريقه للكتابة والنشر في الصحف، وهو ما ضخم في طموحه وآماله حلم الكتابة والاعتداد بها، فكان يراسل الصحف المختلفة من جرائد لبنان، وسار في طريقه حتى كان فيما بعد الاسم الكبير لهذا الأديب والكاتب والعالم والباحث الدكتور (عمر فروخ)

لكننا قبل أن ننتهي من ذكر هذه البداية، لا يمكن أبدًا أن نغفل تلك الكلمة المهمة التي ذكرها عمر نفسه، وهو ينصح ويعرف ويذكر بدور هذا المعلم القدير في حياته، والذي كان سببًا كبيرًا في تكوينه وظهوره وعشقه

للكتابة والنشر في الصحف، التي شجعته ليستمر ويتعلم ويطور من ثقافته ومعارفه، لقد وجه عمر كلماته لكل معلم لا يعرف قيمة وظيفته التي يقوم عليها، ودورها في خلق المواهب وصقلها والعناية بها حيث يقول: "إن عمل المعلم لا يقتصر على إلقاء الدروس في الصف، ولكن المعلم يجب أن يكون أبا للتلاميذ، وعليه أن يكتشف مواهبهم وأن يعدهم بعد التأمل في هذه المواهب لحياتهم المقبلة"

ويتحدث مفكرنا الكبير والعملاق الراحل محمد عمارة، عن الشرارة الأولى التي أطلقت في نفسه حب القراءة والكتابة والشغف بالبحث والتعلق بدنيا المعرفة، والتي تولدت على يد معلمه الذي كان يدرس له في الابتدائي الأستاذ أو الشيخ (محمد كامل الفقي)

من قديم وأنا أرصد دور المعلم في حياة الكثير من المفكرين والعلماء والأدباء، لأدرك هذه الحقيقة الكبرى، عن تأثيره الكبير في حياتهم، وأنهم لم يكونوا ليظهر نبوغهم أو تلمع عبقريتهم، لولا أن قيض الله تعالى لهم معلمين يمنحونهم الأمل، عبر كلمات بسيطة من التشجيع والتحفيز أو محاكاة لهم في بعض التصرفات والمواقف.

مجرد كلمات كان المُعلم يطلقها على تلميذه، فيكون لها فعل السحر في نفسه، والقدرة المهولة على تشكيل مستقبله الواعد المشرق والمبهر، وهو نفس ما حدث للدكتور محمد عمارة رحمه الله.

ولعل هذه الحوادث التي رصدتُها تؤكد إيماني الكبير ودعوتي القوية للمجتمع، أن يهتم بالمعلم ويبلغ به أقصى درجات العناية والرقي والتطوير والوعي، لأنه المسؤول عن تربية الجيل وتكوينه، ويشبه دوره كثيرًا دور الأبوين في التربية والتكوين إن لم يكن أخطر وأبلغ وأعمق أثرًا.

ألا إن الأمة التي تُهمل المعلم، إنما تحكم على نفسها ومستقبلها بالفشل والضياع، وعلى المعلم إن حرمته الأمة مكانته اللائقة، أن يقوم هو بدوره بين الطلاب فيكون نبيهًا ذكيًا فطنًا، يتفقد مواهب الطلاب وينميها، بل يكون أبعد أثرًا من ذلك، فيحاول خلق هذه المواهب فيهم، ويشجعهم عليها، ويؤصل في نفوسهم حب القراءة والبحث والمعرفة، ويُحبب إليهم الكتاب والاطلاع، ويستعمل ما توفر له من أدوات التحفيز والتشجيع التي تدفعهم للأمام.

ماذا لو جعل المعلم في غايته إيمانه بهذا الدور حتى لو أهملته الأمة، ولم تصلح مسار معيشته وراتبه، محاذاة بكثير من الأمم الناهضة، التي تجعل المعلم في مكانة تفوق مكانة الوزراء؟ ليقوم هو بهذا الدور، ويتفقد هؤلاء التلاميذ، ويحاول جاهدًا أن يشحذ المستقبل بكثير من نوابغهم.

لم يفعل (محمد كامل الفقي) شيئًا إلا أنه دخل على التلاميذ يومًا وقال لهم: من منكم يا أولاد يشتري كتبًا خارج نطاق الكتب المدرسية المقررة؟

وعلى الفور ذهب التلميذ محمد عمارة ليشتري كتاب النظرات للمنفلوطي، فطلب منه المعلم أن يأتي به للفصل، وكان يقرأ منه ويطالع، وكانت هذه البداية التي فجرت فواتحها أستاذ محبوب إلى قلوب الطلاب، والتفت من يومها محمد عمارة لكلمة القراءة أو جملة القراءة الحرة، واندفع فيها وصارت في دمه حتى أخرجت مفكرًا جسورًا هدم معابد الماركسيين والعلمانيين على رؤوسهم، وكان شعلة ومنارة وحارسًا يقظًا على تراث الأمة المسلمة.

أرأيت أيها المعلم ماذا صنعت؟

* * * *

قمة المجد الأدبي

مجلة الأزهر كان لها دور كبير وفضل أساسي، في تشجيعي وتوجهي نحو الكتابة، حينما كنت أراسل فيها باب بريد القراء، وكانوا ينشرون لي كل ما أكتب، كان ذلك وأنا في المرحلة الثانوية، ثم جاءت مرحلة الجامعة، فكانت صحيفة آفاق عربية لها الفضل الكبير في استكمال المسيرة، حينما كانت تنشر لي مقالات كثيرة وقوية ومعبرة، راسلت كثيرًا من الصحف والمجلات، وكانوا جميعًا ينشرون لي، لكن تركيزي الأهم، كان على هاتين النافذتين لسعة انتشارهما، ونفاذ أعدادهما وامتداد جمهورهما.

وبهذه العناية من المجلة والجريدة تكونت صداقة بيني وبين القلم، وصرت أهتم بأمر الكتاب والكتابة والقراءة والمطالعة، ويمكن لي أن أعبر بدقة أكثر، إنهما كانا المشجع الأساسي لمسيرتي في دنيا الكتابة والثقافة، فالنشر له مذاقه الخاص، وحلاوته التي لا يمكن لك الاستغناء عنها لو تذوقها الكاتب ابتداء، وحينما تدمنها، تجد نفسك تنجرف لتحصيل كل ما ينميها ويزيد بريقها، وعلى رأسها القراءة، ومن هنا تطورت المسألة، من مجرد طالب وتلميذ يكتب كلمات في أبواب البريد، إلى كاتب وباحث ومؤلف يشعر في قلمه بجموح لا هدوء فيه ولا سكون معه، وصولة لا سكون معها، وعزيمة لا دعة أمامها.

عرفني الكثيرون عن طريق كتاباتي، وكثير من أصدقائي كانوا يتمنون أن يكونوا مثلي في الكتابة والمراسلة، وقد يكون من بينهم من هو أكثر موهبة مني، لكني قد هديت إلى سر التطور، وركبت القطار الذي بلغ بي ما بلغت، وهو النشر الذي يعد من أكثر الأمور المحفزة على التطور في دنيا الكتابة، بل يمثل الوقود الذي يدفع قلم الكاتب ليأتي بالمبهرات، وكما قال نجيب محفوظ: كان النشر لدينا هو قمة المجد الأدبي.

كنت كلما نشرت مقالة، أسارع بعدها لأعد التي تليها، وأسابق الزمن في كتابة الأفكار فكرة بعد فكرة، حتى تكون زادًا أنهل منه وأرسل به لينشر، حتى تكون رصيد كبير من المقالات والأفكار التي يمكن أن تكون نواة لمادة قيمة ومعلمة ثقافية، لا يمكن انتقاصها أو الاستقلال بها.

وقد حاولت أمام هذا السر- أن أرشد الكتاب ومحبي القلم، الذين ينشدون التطور والاحتراف في دنيا الكتابة، فكان نصحي لهم أنهم اليوم محظوظون أكثر من غيرهم، حينما توفر لكل منهم صحيفته الخاصة في مواقع التواصل الاجتماعي، ينشر فيها آراءه ومقالاته التي يقرؤها أصدقاؤه، ويبدون فيها آراءهم وأطروحاتهم وانتقاداتهم، وهو عمل يساهم كثيرًا في تطور الكاتب، حينما يكون له كل يوم قراء ينتظرون أفكاره وأطروحاته وكل ما لديه من جديد الفكر والمعرفة.

اغتنموا صفحات الفيس بوك وغيرها من مواقع التواصل الاجتماعي، في تطوير أقلامكم وامتداد ثقافاتكم، واجعلوا منها منارات تحفزكم للأمام.

ولعظم النشر ومكانته في النفس، وتأثيره في وجدان أصحاب الأقلام، كان أحمد أمين لا يجد وسيلة أبلغ منه في تشجيع أبنائه الذين كانوا فيما دون العشرين، فمنهم ابن ١٥ سنة، ومنهم ابن ١١ سنة، كان ينشر ويطبع لهم قصصهم التي يؤلفونها، وكان يطبع لهم مجلاتهم التي ينشئونها في مدارسهم هم وأصحابهم، ولا يستقل منها ومنهم أبدا، وقد نجحت خطته فخرج أبناؤه كتابًا كبارًا وأدباء معروفين.

يقول جلال أمين: "كان أبي حينما بلغت أنا وأخي حسين سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، يسمح لنا بنشر بعض ما نكتبه في مجلة الثقافة، تلك المجلة الرفيعة التي كان يرأس تحريرها طوال عمرها"

ولا شك أن أساليب أحمد أمين قد نجحت في شحذ همم الصغار، والزج بهم في عالم القلم والكتابة والنشر، بل لفتهم إلى المسؤولية تجاه أنفسهم، حينما تحملوا مسؤولية أقلامهم بعد أن أدركوا أن لها مكانًا وقيمة، يجب أن يحافظوا على مستواها ومكانتها بين العمالقة الكبار.

رأت مشيخة الأزهر أن تحيل رئاسة تحرير مجلتها للكاتب والأديب العبقري النابه (محمد فريد وجدي) وكان اسمها في ذلك الوقت (مجلة نور الإسلام) واستطاع وجدي أن ينتقل بالمجلة نقلة نوعية، بل قيل إنها في ذلك الوقت صارت تضارع بما اتسعت في نطاقها الفكري، كبرى المجلات العلمية في مصر، فأخذت تزاحم (المقتطف) و(الهلال) و(الرسالة) و(الثقافة) لدى المثقفين الكبار، بعد أن كانوا يعدونها مجلة دينية خاصة بالمعممين يتحدثون فيها عن مسائل الفقه من فرائض الوضوء والصيام وشروط الزكاة.

ولكن شيئا مهما لابد من الوقوف عليه في أثناء إدارة هذا الأستاذ الكبير لهذه المجلة، فعلى قدر ما كان يكتب فيها كبار الكتاب الذين انتدبهم إليها، لم يغفل أبدًا أن يقوم برسالته في تشجيع الأجيال الناشئة، وتحفيز المواهب الشابة، فقد كان بعض طلبة المعاهد الأزهرية في ذلك الوقت تدفعهم حماستهم الأدبية، أو يكتبون بعض القصص الأدبية أو دواوين الشعر المبتدئة، وكانوا يبذلون جهودهم في طباعتها، ثم يرسل أحدهم نسخة مما أنتج إلى مدير تحرير مجلة الأزهر مع ما يرسله إلى كبرى الجرائد والمجلات، فلا يجد اهتماما أو صدى إلا في مجلة الأزهر، إذ يقوم الأستاذ وجدي بكتابة صفحة كاملة عن كتيب صغير لمؤلف ناشئ، رأى في قلمه الهش ما يشي بنبوغ مبكر، له مستقبله إذا نما وازدهر، فآثر أن يشجعه بمقال عاطف.

وكان يقول في هذا الشأن: "إن تشجيع الطلاب إذا وجد لديهم ما يدل على حسن الاستعداد، عمل ضروري لا محيد عنه، فالطالب إذا رأى المجلة تحتفل بأثره الناشئ، واصل البحث كاتبًا والشعر ناظما، وأكب على الاطلاع، وقد يكون منه في المستقبل رجل ذو شأن"

الأستاذ (محمد التابعي) وجد نفسه متورطًا في عالم الصحافة والقلم، فالمسألة كلها كانت صدفة وضعته فيها الظروف، ففي يوم من الأيام قرأ التابعي هجومًا من صحيفة الاحتلال الانجليزي (الإيجيبشيان ميل) على أسلوب المظاهرات الشبابية المعادية للإنجليز في أحداث ثورة ١٩١٩، مما أثار حفيظته و غضبه، و لم يدر بنفسه إلا وهو يكتب بقلمه أول مقال له بالإنجليزية، ينتقد فيه رأي الصحيفة، ثم كانت دهشته الكبيرة، عندما نشرت الجريدة مقاله و ياليت هذا فحسب، وإنما نشرته في مكان بارز مع تعليق عليه، كانت هذه هي الخطوة الأولى التي تشجع بعدها التابعي ليكتب رسالة أخرى ويبعث بها إلى ذات الصحيفة، وكانت عن الموظفين الإنجليز الذين يستنزفون أموال الدولة ولا يقومون بأي عمل، و يعلق على هذا المقال بقوله: (لم يكن لدي في الحقيقة أي أمل في نشر تلك الرسالة، و لكنني فوجئت بأن الجريدة نشرتها في مكان بارز أيضًا)..أدرك التابعي وقتها أنه من الممكن أن يستمر، وأنه من الممكن أن يكون كاتبًا و أن هذه الصدفة أو الأحداث

التلقائية التي دفعته لهذه المراسلة، كانت مشجعًا كبيرًا ودافعًا له ليستأنف الكتابة و يلج عالم الصحافة، ويواصل كتابة رسائله عن الإنجليز و استبدادهم في مصر، واحتكارهم للوظائف الهامة في الدولة، و كانت رسائله تنشر تباعًا من الحروف الأولى لاسمه الثلاثي، إلى أن تكونت صداقة بينه وبين مستر (أوفارول) رئيس تحرير الجريدة، وهو الذي دعاه ذات ليلة لمشاهدة مسرحية «غادة الكاميليا» لـ"يوسف وهبي" و"روز اليوسف" بمسرح رمسيس، و لما انتهى العرض كان للتابعي تعليقه الفني على المسرحية وأداء الممثلين، وهو ما أعجب (أوفارول)، وطلب منه أن يكتب مقالًا ناقدًا للمسرحية، لنشره في مجلة «سفنكس» التي كان يشرف عليها بجانب «الإيجبشيان ميل»، وانزعجت فرقة رمسيس النقد، وكلفت جريدة «النظام» بالهجوم على ما كتبته الصحيفة الإنجليزية، و لما قرأ «التابعي» الجريدة، رأى أن يرد عليها بأول مقال له بالعربية، نشره في جريدة «السياسة» لحزب الأحرار الدستوريين، و يقول عن ذلك: «هكذا بدأت أدخل بلاط الصحافة عن طريق الهواية»، وفي عام ١٩٢٤م يكتب في الأهرام ليكون دخوله الحقيقي والجدي لعالم الصحافة، حيث كتب فيها مقالات فنية في النقد المسرحي تحت اسم مستعار ، ثم شجعه النشر في الأهرام على الكتابة لعدد من الصحف مثل (أبو الهول، والسياسة، والنظام، والإيجبشيان ميل) و كان

يوسف وهبي يعجب بمقالاته، وينتظرها حتى وهي تهاجمه وتنتقده، ووصف كاتبها بقوله: "إنه يسقيني السُم في برشامة"

إن النشر بكل وضوح هو من صنع هذه القامة الإعلامية، الذي لقب بأمير الصحافة.

* * * *

إنك تساوي رئيس الجمهورية

شعور الكاتب بالمجد والفخار، شعور لا يدانيه شعور، وإحساس غريب يجب أن نقف عنده ونتنبه له بشيء من التأمل والدراسة، إنه يرى نفسه أرقى وأعلى من كل البشر، من الحكام والزعماء والقادة والمخترعين وكثير من العباقرة، ويرى أن هذا القلم الذي يمسكه في يده، أخطر وأقوى من السلاح الذي يُمسكه الجندي في يده ليقهر به عدوه، يرى قلمه هو المُوجه والمتحكم الأوحد والأساس في عقول الجماهير واختياراتهم، ومن هنا نبع هذا الشعور المتعاظم.

أما الكاتب الوحيد الذي لا يجد هذا الشعور، بل على العكس يشعر بضده، فإنه الكاتب المنافق، الذي جعل من نفسه وقلمه مطية للسلاطين وذوي الجاه والنفوذ، يتحكمون فيه ويوجهونه حيثما يريدون، فهو قلم لا يعرف معنى الحرية والصدق والشرف، لأنه ينبع من إرادة غيره، كما يلازمه شعور دائم بأنه عبد، وأن قلمه قلم عبد، وهو لا يحزن أو يهتم من هذه العبودية، بل على العكس إنه يستلذها ويستلطفها وينعم بها، ما دامت تدر عليه رضا سادته الكبار.

توقع الجميع أن ينعم الملك فاروق على الكاتب والأديب الكبير الدكتور (محمد حسين هيكل) بتشكيل الوزارة الجديدة، وتردد شيء من هذا في أوساط الساسة، ولكن الملك اختار غيره، وبينما هو في حضرته، قال له

فاروق متعذرًا عن عدم اختياره لتشكيل الوزارة، وأنها غدًا قد تأتيه ويقع عليه الاختيار والدور، وهنا يرد هيكل بقوله: يا جلالة الملك، أنا حينما أجلس على مكتبي وأمسك بقلمي، يتضاءل أمامي أي منصب أو نفوذ، وكأنه يشير إلى عرش فاروق نفسه، وأنه يهون عليه كل شيء حينما يمسك بقلمه.

وهو نفس ما ذكر عن العقاد حينما قيل له يوما: كيف أن (محمد محمود باشا) اختار الدكتور هيكل وزيرًا للمعارف، ولم يفكر النقراشي في اختيارك وزيرًا للمعارف؟ ضحك العقاد وقال: إن النقراشي يعلم أنه سينزل العقاد درجتين، عندما يقترح تعيينه وزيرًا للمعارف.

أما الكتاب الذين يرون عكس ذلك، ويرون أن المُلك أروق لهم وأميز من مكانة أقلامهم، فإنهم يعانون من أشياء في حياتهم، تفرض عليهم هذا الاختيار الخاطئ، أو أن ثقتهم أو ثقة من حولهم بأقلامهم ضعيفة لا تدرك معنى الجاه الحقيقي. لقد نال طه حسين الباشاوية وسأله أصدقاؤه وقتها أينادونه يا دكتور أم يا باشا؟ ولأن سوزان كانت تسيطر عليه كل السيطرة، نطقت هي وقالت: تنادونه طبعًا يا باشا، ولعلنا نجد أن زوج توفيق الحكيم، كانت أعمق منها في نظرتها للكاتب، فحينما أراد (جمال عبد الناصر) أن يكرم الحكيم، في احتفال كبير ومناسبة عامة، تجهز توفيق ووقف أمام المرآه ينظر إلى

صورته ويتأمل الموقف، ويتخيل الناس والتكريم، وفجأة قالت له زوجه: إياك أن تنحني وأنت تصافح رئيس الجمهورية، فقال توفيق في دهشة: لماذا وأنا أنحني لكل الناس وأصافح أي مخلوق؟! فقالت له: إنك عندي تساوي رئيس الجمهورية، ورفضت زوجة توفيق الحكيم، أن ينحني الأدب للسياسة، والعلم للحكم، والمعرفة للسلطة.

لقد كان توفيق الحكيم يرى أن الكاتب في أي بلد متحضر أكبر مكانة من الوزير.

وفي الوقت الذي كان فيه ناصر يكرم الكتاب وأصحاب الأقلام، فلا تحسبن أن هذا ديدنه وحاله، فالرجل لم يكن يرحم كاتبا يعارضه، أو كاتبا غضب عليه، فلا يوقر وقتها قلما ولا فكرا ولا علما، وكان عهده مهانة لكثير من أصحاب الأقلام الذين سجلوا مهازل معتقلاته ومخازي سجونه. نسمع كثيرًا عن انتهاكات تجرى في حق المسجونين، فمنهم من يُعذب ويجلد، ومنهم من يُقيد، ومنهم من يخضع للحبس الانفرادي، ومنهم من يجوع ويحرم من الطعام، ومن من يساق للسخرة والخدمة، ومنهم من يسحل وتهان كرامته، وغير ذلك من صور الألم والعذاب، ولكن.. هل تصدق لو أخبرتك أن كل هذه التعاسات، لا تساوي شيئًا في حياة الكاتب لو أنه سُجن ومُنع من الكتابة، وحُرِّم عليه القلم والورق؟! نعم هذا ما شعر به الكاتب الكبير

الأستاذ مصطفى أمين حينما سُجن لمدة ٩ سنوات في عهد الطاغية جمال عبد الناصر، ولكنه لم يطق صبرًا على هذا الحرمان، ولم يقبل بهذا العقاب حتى قال: (الكتابة بالنسبة للكاتب أشبه بالتنفس)

لقد كان سجينًا مثاليًا هادئًا مسالمًا مستكينًا مطيعًا، يقبل كل أوامر السجن وقوانينه ويطيعها إلا في شيء واحد كان لا يقبله ويتمرد عليه، وهو القرار بمنعه من الكتابة ومصادرة الأوراق من حوله.. لقد حرموه من أعز ما يهواه في حياته، فقد كان القلم ممنوعًا، والورق ممنوعًا، والحبر ممنوعًا.. حتى أوراق التواليت، منعوها خشية أن تواتيه فكرة الكتابة عليها، كما سمحوا له فقط أن يكتب مرتين لأسرته، وكل خطاب كان يعادل نِصف صفحة كراس.

فماذا فعل كاتبنا الكبير أمام أشق عقاب في حياته وعلى نفسه وروحه؟

لقد بدأ بمعاونة بعض زملائه المساجين، في عملية تهريب الورق والقلم، ثم بعد ذلك عملية تهريب الرسائل إلى أخيه على أمين وبعض أصدقائه، ولم يكن الأمر سهلًا، بل كانت العواقب وخيمة وبيلة، لو اكتشف هذا الأمر، ولخضع هؤلاء المتعاونون معه في عملية التهريب، إلى عقاب قاس مُر مؤلم، وضياع تام لمستقبلهم، لأنهم خالفوا ليس فقط رغبة السجن وإدارته، وإنما رغبة عبد الناصر نفسه.

لقد وصف أمين من تعاونوا معه بأنهم رجال شجعان، والحق أنني أستقل هذا الوصف كثيرًا، لأنهم بما فعلوا فدائيون أكثر من كونهم مجرد شجعان.

إن أحد المساجين خضع لعملية تفتيش، فاكتشفوا معه خطابًا، وقبل أن يتفحصوه ويعرفوا ممن هو، أسرع وابتلعه في فمه، ومنه إلى بطنه، فأخذوا وعذبوه وجلدوه ونكلوا به وهددوه، لكنه لم ينطق أو يقر بصاحب الخطاب، وظل في هذا العذاب مدة ٤ شهور، ولك أن تتعجب أن هذا الفريق الفدائي استطاع أن يُهرب (٩٠٠٠) رسالة لمصطفى أمين، وهو عدد ضخم لا أظنه يكتب ويخط مثله، لو كان حرًا طليقًا في مكتبه في أخبار اليوم.

لقد كان عملا جريئًا وتحديًا كبيرًا لغرور الطغاة الكبار، لم يندفع لتنفيذه فريق الشجعان الفدائيين وحدهم، وإنما دفعت إليه رغبة عارمة لكاتب لا يتصور حياته بدون القلم، أو حياته بدون الورق.

* * * *

لا تنس أبدًا أنك إنسان

إلى الذين يستحقون نياشين الخسة والحقارة.

إن الإنسان الحقير الكريه الذي تلفظه نفسي ولا تطيق رؤيته عيني، ذلك الذي يكفر بفضيلة الستر، ويبادر بفضح الناس إن علم من أسرار حياتهم وخصائصهم خبيئة أو نقيصة، فلا يرحم مشاعرهم، أو يشفق على سمعتهم غير عابئ بضعفهم وعجزهم، والظروف العصيبة التي ربما دفعتهم لهذا المكروه أو هذا الخطأ.

وبحكم وجودي في العمل الصحفي، والذي يهتم بدنيا الناس وشؤونهم وأخبارهم، أُبصر كثيرًا من هذه الرزايا، التي يتسم بها صحفيون لا خلق لهم ولا شرف ولا إنسانية ولا رحمة، ممن يعشقون فضح الناس وتجريسهم على الصحف، ودهس مشاعرهم وتحطيم سمعتهم أمام المجتمع بنشر زلة أو سر من الأسرار التي لا يحبون أن يطلع عليها الناس.

وهؤلاء الصحفيون هم أجدر من يستحق نياشين الخسة والحقارة عن جدارة، وأولى بالمجتمع أن يطردهم من حياته، لأنهم يسممون أخلاقه، ويفسدون فيه موازين القيم، ربما تصفق الدنيا له وتعطيه الصحيفة التي فضح على أوراقها مشهورًا من المشاهير، أو عائلة من العائلات مكافأة وجائزة، ربما يصفق له أصحابه ويقابلونه بالتباريك والغبطة والابتسامة، ربما ينتشي لأن

الدنيا كلها تتابع ما كتبه وتقرأ اسمه على ما نشر. وما حقق من سبق غير مسبوق، ربما كل هذه الأشياء التي تبهج نفسه وتجعله سعيدًا، لكنه في غمرة هذه البهجة وهذه السعادة التي بنيت على أنقاض الشرف والضمير، لا يعلم أنه لابد له أن يحزن ويبكي، لأنه خسر إنسانيته وضميره وشرفه، الذي مات وخلف هذه النفس الجشعة، تلهث في أنانية وانتهازية، وتحيا على آلام الناس ومشاعرهم المجروحة، ونحب هنا أن نذكر بدروس أو مواقف للصحفيين الشرفاء علَّ هؤلاء الانتهازيين الفجرة يخشعون لله ويتذكرون قدرته، وتنطفئ في أجوافهم الملعونة نيران الانتهازية والتسلط والعدوان على حرية الناس، وهتك أستارهم وتتبع عوراتهم.

انظر هذا أمير الصحافة الأستاذ محمد التابعي، الذي لم يفته أن يضع الموازين الإنسانية لمن يعملون بهذه المهنة.

لم يفته أن يُعلِّم من بعده أن الإنسانية فوق كل شيء وقبل كل شيء، لقد اشتغل بالصحافة عقودًا طويلة، وعرف فيها عشرات الزعماء والسياسيين، وكان بعضهم يفضي إليه بأسرار كثيرة أو يكشف أمامه خفايا ضعفه، فلم يكن يستغل هذا ليروي عنهم ما عرفه واكتشفه وأظهروه له، لأنه كان يعتبر ذلك خيانة للأمانة، ولم ينس أبدا أنه إنسان أمام السبق الصحفي أو النجاح الإعلامي، يقول التابعي: لقد قابلت ملك الأفغان أمان الله مرتين في

سويسرا وزيوريخ، وكان كسير الخاطر محطم الآمال ويمشي تحت وابل من المطر لكسر الوقت حسب تعبيره، كتبت عنه مرتين ورويت الحديث الذي دار بيننا ، إلا جزءًا خاصًا بزوجته السابقة الملكة ثريا، وهذا أبقيته حتى اليوم في صدري وكتمته ولم أنشره، لأنني لم أستطع أن أنسى قبل أن أكون صحفيًا أنني إنسان، وفاروق الطاغية لا أستطيع أن أكتب وأروي عنه لأنني إنسان، لقد قاومته وحاربت طغيانه قدر ما استطعت وهو ملك وحاكم بأمره، وكتبت عنه بعد خلعه وطرده، كتبت ولم أرحمه، وأسهبت في سرد قصص مخازيه وفضائحه، ومع ذلك فإنني لم أنس في كل ما كتبت أنني إنسان، فلم أذكر مثلا لماذا بكى يومئذ في دار بالإسكندرية عام ٣٧، لم أكتب وأذكر التفاصيل، لأنه بكى ساعتئذ كإنسان لا كملك، هكذا شرح التابعي وعلم سالكي المهنة ولفتهم لأهم دروسها وواجباتها، ألا ينسى أحدهم يوما أنه إنسان.

ويحضرني في هذا قول أحد الصحفيين الكبار والذي يوافق فيه التابعي: "إنني أفضل أن أكون إنسانًا ملتزما بالقيم والمبادئ والمثل العليا والأمانة الصحفية، على أن أكون أشهر صحفي في العالم، و لا أكون ملتزما بالقيم والمبادئ والمثل العليا والأمانة الصحفية"

أيها الصحفي المخدوع ببريق الشهرة وانبهار المجتمع بما كتبت وقصصت، ربما لا تلتفت لكلام التابعي ودروسه وتعتبرها هلوسة لا يقبلها

الزمن ولا الأيام، ربما تنحيها خلفك لأنها تعيق مستقبلك الذي لا تراه يقوم إلا على الفضائح والتجريس والتجريح والتعريض، ربما تفعل ذلك، لكنني على يقين كبير أنك يومًا ما ستندم أشد الندم، حينما يحيا ضميرك الميت بقدرة الله، أو يستيقظ من ثباته العميق، لتعض أناملك وتمزق نفسك حزنًا واستقباحًا على ما فعلت وما كتبت، تماما كندم الصحفي الكبير (موسى صبري) وهو يحكي لنا عن ألمه النفسي الذي مزقه حينما نسي- إنسانيته لحظة أمام سبق صحفي، رأى أنه سيحقق له النجاح والتفوق، يقول في مذكراته : "لعلني تألمت من عمل صحفي جلب لي التهنئة، عندما طاردت سيدة بريطانية، قدمت من إنجلترا خلال مرحلة العمل الفدائي في منطقة القنال، وقد ارتكب ولدها الجندي في القوات البريطانية جريمة، استحق عليها الحكم بالإعدام، لست أذكر الآن نوع هذه الجريمة، ولكن كل ما أذكره أنني طاردت هذه السيدة في أحد فنادق مصر الجديدة، ومعي مصور (آخر لحظة)، لكي نصورها وأحصل منها على حديث، وكانت هي في قمة آلامها لا تريد أن تواجه الصحافة، لقد جاءت للقاء أخير مع ولدها قبل أن ينفذ عليه الحكم رميًا بالرصاص، وحاولت السيدة التهرب من الصحافة وسط إجراءات أمن مشددة، لكنني تحايلت على الاختفاء في ركن مستتر من سلم الفندق، ولما اقتربت مني وكان الوقت ليلا، ظهرت أمامها فجأة ومعي المصور، وأطلقت صرخة فزع وصرخت: ابتعدوا عني؟ احترموا قلب الأم، ولكنني وفي نشوة

الانفراد بالصورة الصحفية، لم أبتعد ولم أحترم قلب الأم، والتقطت الصور ثم هربنا من مطاردة الأمن وعدت إلى أخبار اليوم سعيدًا بهذا النجاح، وتلقيت التهنئة عندما انفردت آخر لحظة بصورة هذه الأم وهي صارخة فزعة، ولكنني في لحظة صفاء بعد ذلك أصابني ألم عظيم، وماذا لو لم ننفرد بهذه الصورة التي عجزت عنها وكالات الأنباء العالمية؟ ماذا لو لم تنشر أصلا؟ إن الثمن هو ضربة إلى قلب الأم التي جاءت من آخر الدنيا لتقول للابن: وداعا.. بل لعلها تصورت أننا وحوش."

ينقل الصحفي الكبير صبري أبو المجد في كتابه عن التابعي، كلامًا رائعًا للأستاذ حازم فوده في تحليل شخصية التابعي فيقول: "ولعل التابعي من الشخصيات القلائل الذين لا يمكن أن يرقى الشك إلى إخلاصهم، في الدور الذي لعبوه في الكشف عن المهازل السياسية، التي كانت تحدث في مصر قبل ثورة (١٩٥٢م) وذلك أنه هاجم السراي وهي تملك وتحكم، وهاجم الحكومات وهي تمارس كل سلطاتها وهاجم الأحزاب وهي تتمادى في طغيانها، هاجم (علي ماهر) وهو رئيس للديوان الملكي وهاجمه وهو رئيس للوزراء، كشف الفضائح التي كانت تجري بين جدران القصور المغلقة، إما بالكلام الصريح الواضح أو المفهوم من بين السطور، ولم يخش أشباح البطش والاستبداد والاضطهاد، التي كانت تتعقب كل خطواته حتى عندما هدده

(علي ماهر) بالضرب بالرصاص لم يضع التابعي قلمه بين أسنانه ويهرب، ولكنه وضعه على الورق واستمر في هجومه عليه حتى سقط من رئاسة الديوان الملكي ومن رئاسة الوزارة"

هذا موقفه مع رئيس الوزراء، أما الموقف التالي فكان مع أكبر رأس في البلاد، وهو الملك نفسه حينما كتب عام (١٩٥٠م) مقالا تحت عنوان (يحيا الظلم) قال فيه: نعم يحيا الظلم، ظلم كل جبار عات، معتز بسلطانه وسطوته، يدوس القوانين ولا يبالي، ويختلس ولا يبالي، ويثلم الأعراض ولا يُبالي، ويهدر الكرامات ودم الوطن، ويجعل من مصر أمثولة السوء، وبصقة كريهة في فم الزمن "نعم يحيا الظلم" ظلم كل مطالب باحترام القانون ولا يحترمه، وكل قادر على حماية القانون ولا يحميه، وظلم كل عابث ماجن مستهتر إباحي، يضرب للناس أسوأ الأمثال، نعم يحيا الظلم لأنه خير مُرب للنفوس ونفوس المصريين، تجيش اليوم بمعنى واحد، لقد صبرنا كثيرًا ولن نصبر بعد اليوم، وتحملنا كثيرًا ولن نتحمل بعد اليوم"

وقرأ فاروق المقال وأشار – كما يقول التابعي – على هذه العبارات التي سبق ذكرها، ثم سأل بعض رجال ديوانه الملكي: من العظيم الفاجر الذي يسرق ويعتدي على الأعراض؟ وسكتوا عن الرد. وعاد يسألهم: من الذي يعنيه التابعي؟ ولم يجب أحد منهم، وابتسم فاروق ابتسامة صفراء، لأنه عرف بكل تأكيد من سكوت رجاله، أنه هو المعني والمقصود.

كان من الممكن بكل سهولة أن يسير التابعي في ركاب الملك وينافق الحكومات ويداهن المسؤولين ويسخر قلمه ومداده لخدمتهم ومدحهم والزود عنهم، لكنه كان يحترم نفسه ويُقدس مبادئه ويعتز بضميره، لقد كان شجاعًا لا يخشى الموت ولا يرهب التهديد، وكان على أتم استعداد أن يبذل روحه في سبيل وطنه ومبادئه وسعادة بلاده، التي جند نفسه وقلمه للدفاع عنها ضد المفسدين والطاغين والمتجبرين.

* * * *

ضياع الإبداع

صدقني أخي القارئ لو أخبرتك: أن الأديب أو العالم أو المفكر والكاتب تُصيبه مرارة كبيرة، وحرقة عظيمة، لو ضاع منه مؤلف كتبه قبل أن يطبعه، بل لي أن أخبرك بلا مبالغة: أن فقد الكتاب عند هؤلاء الناس، يساوي تمامًا فقد أبنائهم وآبائهم أو أي عزيز لديهم في الدنيا.

رحم الله الشيخ (منير الغضبان) صاحب أهم كتب في السيرة النبوية (المنهج الحركي للسيرة النبوية) لقد كان الشيخ منير عالمًا قديرًا وداعية نبيها، وبحاثة عبقريًا.. حكى لي بعض أصدقائي المحبين من الإخوة السوريين، الذين كانوا على صلة بالشيخ: أنه رحمه الله أعطى كتابًا ألفه لأحد المراجعين، وبعد بضعة أيام، أخبره المراجع بضياع الكتاب، وأنه لا يجده، ولا يعرف أين ذهب! فحزن الشيخ منير على ذلك كثيرًا واحتسب الأمر عند الله.

وبعد برهة من الزمن، وجد المراجع ما ضاع منه، فاتصل بصديقي وطلب منه أن يأتي ليرد للشيخ كتابه، وبالفعل تحرك صديقي مسرعًا، وذهب إلى الشيخ ومعه كتابه الذي حزن بفقده وتألم بضياعه، وما إن وصل صديقي ورد للشيخ غائبه، حتى تهلل وفرح بشدة، وقال له بكل حرارة وإحساس: لقد رددت إليّ أحد أولادي بعد أن فقدته.

نعم.. بهذه النظرة، كان أولئك المبدعون ينظرون لأعمالهم ومؤلفاتهم، التي هي مهجة أرواحهم، وبنات أفكارهم، وإبداعهم الذي يُخلد في الدنيا ذكرهم، ويدل على آثارهم.

ومن هنا ولهذه القيمة، يكاد الأديب يعض على يديه من الندم والألم، حينما تضيع من بين يديه أفكاره، التي بذل فيها عصارة وعيه وتركيزه، وموهبته وخياله، تضيع منه بفعل عدو أو بسبب الإهمال، ولو أنه وقتها خير بين التفريط في كثير من المال مقابل أن يسترد ما كتب قلمه وأنتجته قريحته، لفرط وبلا تردد في كل كنوز الدنيا، التي لا تساوي في نفسه حرفًا مما كتب.

أذكر أن أحدهم عرض علي يومًا أن يأخذ مؤلفًا من كتبي، مقابل آلاف الريالات، شريطة أن أنساه تمامًا، وأحذفه من ذاكرتي، لكنني رفضت.. ولم يكن هناك حتى مجرد تفكير، أو أدنى تردد في النفس بين القبول والرفض، حتى لو عرضت علي كنوز الدنيا.

وأكثر من تضيع كتبهم أولئك المفكرين والعلماء والأدباء، الذين يضطهدهم الأمن والبوليس، بسبب أفكارهم وآرائهم السياسية، التي تتعارض مع توجهات الحكومات والأنظمة، عبر حملات أمنية تسطوا على ممتلكاتهم وكتبهم ومنشوراتهم، التي تخضع للفحص والتحقيق لاقتناص التهم، التي يريدونها ويبحثون عنها من بين سطورها.

حتى شبه بعضهم هذه الحملات الأمنية بالتتار، الذين سطوا على تراث الإسلام، وأفقدوا العالم كله ثمرة حضارة عظيمة.

وتبقى مشكلة كبيرة، إن حاول بعضهم أن يستسهل الأمر ويقول: ما المشكلة في أن يخط الأديب ما سلب منه أوضاع مرة ثانية؟! ولكن الذين يحتكون بالأقلام، يدركون أن هذا أمر صعب مستحيل، وإن حدث فإن النسخة المعادة لا تكون أبدًا في جمال ورونق النسخة الأولى، لأن الحالة النفسية والمزاج والحماس الذي كتبت به الأوراق الأولى، لا يتكرر ولا يعاد.

وهو ما أشار إليه الأديب الكبير الدكتور (نجيب الكيلاني) حينما سلم للناشر رواية (الكأس الفارغة) وبعد طباعة البروفات والقيام بتصحيحها، قامت الحكومة بفرض الحراسة على المطبعة، وحاول الكيلاني أن يسترد روايته بمحاولات مستميتة، ولكنه لم يُفلح فسألته زوجه: لماذا لا تكتبها من جديد؟

فقال لها: "يصعب ذلك.. فأنا لا أتذكر إلا إطارها العام، والشيء الذي أكتبه مرة، لا أندفع إليه بنفس الحماسة إذا عدت لكتابته مرة أخرى"

ويعد نجيب الكيلاني من أكثر الأدباء الذين ابتلوا بتبديد كثير من أعمالهم عن طريق الحملات الأمنية، مثل مسرحية حسناء بابل، التي كتبها في

السجن وصادرتها إدارته عقب حملة تفتيش متعنتة.. وكتابه (الرافعي في موكب البعث) الذي تم إحراقه على أيدي هؤلاء المغول الذين لا يقدرون قيمته.

وأذكر أننا حتى وقت قريب، كنا نكافح من أجل الوصول للمسؤولين في المكتبة التوفيقية، ونترجاهم أن يردوا إلينا ثلاثة كتب أخذوها من شيخنا العلامة الدكتور (محمود عمارة) ولم يوفوا بطباعتها، وللأسف رحل الرجل، ولم يكن عنده نسخة إضافية، وأمام إهمال هذه الدار، واستهتار مسؤوليها وإصرارهم على عدم طباعة تراث الدكتور أو إعادته لأسرته، ضاعت هذه النوادر.. كنا نشعر بضيق كبير أمام هؤلاء الجهلاء الذين لا يبالون لشيء، ولا يحتفون بتراث، ولا يقدرون قامة الرجل، الذين أهدروا كتبه، وأضاعوا أسفاره.

السينما الأمريكية أرادت أن تعكس لنا المأساة التي ينتكب بها الكاتب حينما يضيع منه إبداعه، ففي الفيلم الشهير (ذا وردس) أو الكلمات، بطولة الفنان (جيرمي إيرونز) والذي يحكي قصة شاب عمل في الصحافة، ثم مرت به ظروف عصيبة قاسية حين تعرض للفقر الشديد والاحتياج الكبير، وموت طفلته الصغيرة، وإصابة زوجته بحالة اكتئاب مروع، ومحنة نفسية عنيفة.

تغيرت حياتها بالكلية واضطرب حبها الشديد، وفي يوم ما رجع إلى البيت خائر النفس فاتر الأمل، فوجد خطابًا من زوجته تخبره فيه أنها ذهبت إلى أسرتها في الأرياف، حتى تستريح وتستطيع التفكير وتأخذ القرار.

اسودت الدنيا في وجهه، وأطاح بالكتب والأثاث، وأخذ ينظر للخطاب، وهو في قمة ذهوله ويأسه، والتقط الألة الكاتبة من على الأرض، وشعر أن هناك شيئًا في نفسه يريد أن يُعبر عنه، وأخذ يكتب ويكتب، وواصل الكتابة ليلا ونهارًا، ونسي معها الأكل والنوم، وانسابت الكلمات منه كأنها شلال جارف، وتواردت عليه الأفكار كأنها المطر المنهمر، واستطاع أن ينهي روايته في أسبوعين.

كان يدرك أن هناك قدرة خارقة هي التي ألهمته ما كتب، وفتح له هذا المكتوب بابًا كبيرًا من التفاؤل والأمل والبهجة، فنظف بيته ورحل إلى زوجته، والتقى بها وكانت فرحتها شديدة بروايته، وهو يجسد ملحمة الحزن في حياتهما، وطلبت منه أن يتركها ويذهب إلى باريس، وأخذت هي تقرأ وتستمتع بما سحرها من تفاصيل الرواية، فلم تجد نفسها إلا وهي تحزم أمتعتها للرحيل إلى بيتها وزوجها، وعزمت أن تستقبل معه حياة جيدة، مشوبة بالأمل والسعادة وتخطي الأحزان المميتة.

استقبلها زوجها الشاب بفرحة ومحبة وأحضان شوق عارمة، لكن هذه الفرحة الكبيرة برجوعها وشوقها، أنستها الحقيبة التي بها الرواية في

القطار، تركتها لأن أحضان الزوج وقبلاته، كانت تنتظرها وتتلهف عليها، لقد كان فقد الرواية صاعقة نزلت عليه فأفقدته توازنه، فأخذ يدور حول نفسه كالمجنون، فالساعات والأيام التي ولدت فيها هذه الرواية، لا يمكن أن تعود أو تتكرر، لأنها كتبت من رحم المعاناة، كان إحساسًا مرًا قتل في نفسه فرحته برجوع زوجته إلى الحياة والتفاؤل والابتسام مرة أخرى، لقد غضب واحتد في ألفاظه، لطمته زوجته، ترك كل شيء وأسرع كالمجنون إلى محطة القطار فلم يجد شيئًا، ولم يدله أحد على شيء، وكان ضياع القصة بداية لانهيار حياته مرة ثانية، بل كانت عقدة لم يستطع بعدها كتابة أي شيء، وانحرفت به الحياة إلى مشارب مغايرة ودروب مختلفة عن دنيا الكتابة.

لقد كان مقررًا لهذا الإبداع لو أنه بقي ولم يفقده، أن يكون باعثا ومحفزا لميلاد أديب كبير، لكنها الأقدار في ضياع الابداع، وتخلف حزن عليه لا يمحوه الزمان.

وعثر على الرواية بعد عقود من الزمن كاتب مبتدئ، لم يعرف أصل هذه الرواية ولا من كتبها، وأوحى له الشيطان أن يسرقها ويطبعها وينسبها إلى نفسه، فظهرت للنور، ونال الفتى شهرة ساحقة في عالم الأدب وصيرته حديث الصحف والمجلات، وقدرًا عثر عليها صاحبها الأصلي، فإذا بها تجدد لديه الأحزان وتذكره بأظلم فترة من حياته.

وكان لابد من لقاء الفتى وتذكيره بسرقته وإعلامه بظروف الرواية وتفاصيل أحداثها، لكن ما خسره في حياته، نأى به عن فضحه والمطالبة بشيء من حقه، لقد كان مثالا للإنسان الخاسر الممزق المحطم، الضائع من كل شيء، قبل أن يضيع منه كل شيء.

* * * *

إن جسدي يقشعر

لا أعرف ما الذي جَبَل نفسي على هذه الخشية والحذر والتحسب حينما أكتب بقلمي، فلا أقترب من أي كلمة أو لفظ أو جملة، يمكن أن يشتم منها رائحة العبث والهزء والاستخفاف بالدين أو الآخرة أو أي شيء يمس العقيدة.

وربما يكون التشبيه أو الاستعارة لا شيء فيهما إذا ما تعمقنا في المعنى المقصود، والغاية التي يرمي إليها، لكنني أجد نفورًا عظيمًا في نفسي. يرفض هذا الطرح ولا يقبل به ولا يستسيغه أو يسلم له.

هل يمكن لك أن تستريح وأنت تضع ثعبانا في جيبك؟!

هل يمكن أن تستقر في مكان، وأنت تعلم أن هناك قنبلة موقوتة توشك أن تبعثرك إلى أشلاء؟

هل يمكن أن تجلس على مقعد فيه شوك يثقب مسامك ويؤلم جلدك؟

إنك لن تكون مستريحًا في واحدة من هذه الصور، وكذلك أنا لا أستريح أبدًا ولا يمكن أن يكون لي قرار هانئ، مع استخدام عبارة من هذه العبارات التي تتعلق بالدين في شيء.

ربما يرجع هذا لدراستي الأزهرية، أو للتدين الذي تربينا عليه في بيئاتنا، أو الإيمان الكبير بعظمة الخالق واحترام شعائره.

لكنه على كل حال، عمل وأمر أحمد الله تعالى عليه، وأجعله من قبيل تعظيمي لديني، وإكباري لمقام الألوهية، على عكس ما أرى من أناس تعلموا الجرأة والوقاحة، في كتاباتهم على الرسول والقرآن والجنة والنار، بل عن الله تعالى ذاته جل جلاله وتعاظم سبحانه.

حتى أن صنفًا ممن يستظلون بلحاف الأدب، جعلوا الوقاحة في هذا الإطار وكأنه لون من ألوان العبقرية، فكلما كنت جريئًا على الدين ومعتقداته بكلماتك كنت نابغة.

الفنان عادل أدهم كثيرًا ما كانت له عبارات رهيبة، ينخلع لها قلبي، كلما سمعتها في مشاهده المسجلة في السينما وعلى رأسها قوله: (ونتقابل في جهنم بأه، لأننا لو رحنا الجنة مش حانلاقي حد نعرفه) ما هذا السفه؟!

ومن شدة انقباضي أتساءل: ما الذي جعل الرجل يقترب من هذا السياج المقدس بكل هذه الجرأة المتجردة من أي وجل وتقديس وتعظيم، حتى ولو كانت تمثيلا وعملا فنيًا؟!

لقد وقف نزار قباني يصف الطاغية العربي ناصر بعد موته بقوله: قتلناك يا آخر الأنبياء!

فأي نبوة يترقى إليها طاغية غشوم، والنبوة تعني الاتصال بالله، وقد كان الرجل حربا على الإسلام، وعميلا للشيوعية، ونصيرًا للإلحاد.

ويحكم يا قوم.. مالكم لا ترجون لله وقارا؟

منذ فترة قرأت نصًا في خاطرة لإحدى أديباتنا تقول فيه: (أنا الآن على بعد خطوات من السماء وحين أصعد سأروي لله تعالى كل شيء)

والحق أنني على قدر فهمي لمعنى الجملة، وما تحمله من الشكوى إلى الله تعالى مما وقع على صاحبها من ظلم، وعلى قدر ما تحمل العبارة من جمال أدبي أخاذ، إلا أنني شعرت بالانقباض الذي تحدثت عنه، لأن الله تعالى يعلم كل شيء ولا يحتاج لمن يخبره بشيء.

حتى بعض الصوفية الذين يفترض أن يكونوا أقرب الناس إلى الله تعالى، كانت للشطّاحين منهم تعبيرات فجة، يقصدون بها معان غير التي نطقوا بها، فحينما يقول الحلاج للناس: معبودكم تحت قدميكم، اتهموه بالزندقة فلما حفروا الأرض وجدوا المال وعرفوا أنه كان يقصده ولم يتزندق.

وحينما يقول ابن سبعين: لقد تكلف ابن آمنة كثيرًا حينما قال: لا نبي بعدي. فهذه وقاحة لم ينطق بها أفجر الخلق وأعدى الكفار.

وهي كلمات كلها جرأة في التعبير ينغمس فيها لفظ الألوهية أو مقامها دون دراية من أصحابها وكأنهم مغيبون أو مجانين تائهون.

منذ فترة قرأت للحكيم وهو يتحدث عن الأستاذ العقاد فقال عنه: إن العقاد لو دخل الجنة ولم يجد كتبا لقال: جنة بلا كتب.. كيف تكون جنة؟!

ومع تقديري للتعبير البليغ، إلا أن حساسية الوجد من التعبير بالجنة والنار، يجعل جلدي يقشعر من استخدام هذه الالفاظ أو قراءتها.

كنت مؤخرًا أقرأ للأستاذ مصطفى أمين في كتابه (من واحد لعشرة) فوجدته يعبر عن حبه وعشقه للقلم والكتابة بقوله: "أشعر وأنا أمسك قلمي، أنني أعانق أجمل امرأة في العالم، ولهذا عشت قصة حب طويلة، ولا أتصور أنني أعيش يومًا في حياتي بغير قلم، فلقد كان هذا القلم دائما صديقي وحبيبي، أعطيته وأعطاني، وعشقته وأخلص لي، وعندما أموت أرجو أن يضعوه بجواري في قبري، فقد أحتاج إليه إذا كتبت تحقيقًا صحفيًا عن يوم القيامة."

إن نفسي تُسائل عقلي وعاطفتي في دهشة عجيبة كيف استطاع الرجل أن يكتب هذه الكلمة الجسورة؟! تحقيق صحفي عن يوم القيامة!

تحدثني نفسي أنه عبث واستهتار بيوم القيامة، الذي تشيب له الولدان شيبًا، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، إنه يوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل.

إن قضية التناص في الأدب العربي وهو المصطلح النقدي الذي يقصد به وجود تشابه بين نص وآخر، أو بين عدة نصوص، قد رفضه علماء المسلمين مع الكتاب والسنة، وضبطوا قضية الاقتباس منهما ووضعوا لها

شروطًا، وحرّموه، وقيل: "يحرم الاستشهاد بالقرآن إذا انتقص أو أوهم الانتقاص لكتاب الله أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فلا يجوز عندهم أن يقول رجل لابنه واسمه إبراهيم: يا إبراهيم أعرض عن هذا، أو ينادي ابنًا له اسمه يحيى فيقول له: يا يحيى خذ الكتاب بقوة، أو يقول أحدهم وهو يقدم طعامه لأضيافه: هنيئًا مريئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية، أو يكتب خياط: نحن نقص عليك أحسن القصص، أو محل لعصير القصب: وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا، أو محل لإصلاح الساعات: ويسألونك عن الساعة، فكل هذا الاستشهاد يعد انتقاصًا أو إيهامًا للنقص فهو حرام."

وقد ذُكر أن بيرم التونسي وقع في جريمة التناص مع القرآن الكريم أيام تمرده، في محاولته لمدح سعد زغلول، ثم رجع في نهاية حياته فتاب وحسُنت توبته، وكان يذكر هذه الأيام ويقول: لا أجعل في حل من يروي عني هذا التمرد، وألف رائعته معلنًا توبته: (دعاني لبّيته.. لحج باب بيته)، وعلى الرغم من ذلك، نشرت الهيئة المصرية العامة للكتاب الأعمال الكاملة لبيرم التونسي، فذكرت محاولاته هذه والتي ما كان ينبغي أن تذكرها وقد تبرأ الرجل منها، وبالرغم من أن مشايخنا قد نهونا عن ذكرها وترددها، إلا أننا نرى أن بعض الكتاب، ما زالوا يفعلون هذا فيحاولون أن يقلدوا النظم القرآني في مسائل تدخل في باب السخرية السياسية أو الاجتماعية، فيقول

مثلًا: تبّت يدا فلان وتب، ويذكر اسم خصمه السياسي وهو ما لا يليق بجلال القرآن"

ويكفينا أن نعلم أن هؤلاء الناس يجدون ما نجد من الخشية والوجل والاستعظام، ولكنها ليست لله تعالى، ولكن للملوك والرؤساء والوجهاء والوزراء، فلا يستطيع أحدهم أن يكتب كلمة واحدة تمس شيئًا أو شأنًا من شؤون هذه الشخوص البشرية، لأنهم قوم تدربوا أن يخشوا المخلوق ولا يخشوا الخالق.

* * * *

علموا كُتّابكم القضية

حينما أرسلتني الصحيفة عام ٢٠٠٦م، لأجري حوارًا صحفيًا مع فضيلة العلم الراحل دكتور عبد الصبور شاهين حول الهجرة النبوية، استقبلني الرجل في بيته بحفاوة الأب، وأعطاني كتابًا جديدًا له تحت عنوان (علموا أولادكم القضية)، ثم طلبت منه أن يكتب الإهداء بخط يده ففعل، وهو ما أعتز به كثيرًا إلى اليوم، وبعيدًا عن مضمون الكتاب الذي يتناول فيه المؤلف قضية أخرى، إلا أن العنوان كان عبقريًا، فالقضية معلم من معالم التربية، والذين يفتقدون العمل للقضية السامية، لم يتلقوا تربية راشدة.

وفي دنيا الكتابة نجدها من أكثر الميادين، التي كما عجت بكتاب راشدين أصحاب قضية فقد امتلأت بكتاب نفعيين لا قضية لهم إلا النهم من الدنيا والسعي وراء متعها بلعابهم.

هل مر بك يومًا أن تسأل نفسك عن الفرق بين الإعجاب والاحترام؟!

كثيرون جدًا يمكن لك أن تعجب بهم وينالون موقعًا مبهرًا من نفسك، لكن هذا الإعجاب لا يرقى لرتبة الاحترام، فالاحترام مكانة كبيرة تتكلف مقومات ضخمة من صاحبها حتى نقر له بالاحترام.

إنك لو بحثت في سيرة المتنبي أشعر من عرف العرب، وخاصة لو سألت عنه عالمًا باللغة والأدب، لسمعت كلامًا ضخما يطال السماء، ووصفًا هائلا عن المتنبي، يشيد بعبقريته ونباهته، وبراعة إبداعه، وإعجاز الله تعالى فيه، وهو الإعجاب الذي نعنيه ونقصده.

لكننا حينما نتحدث عن الاحترام، وأطلب منك أن تجيب بصدق حينما أسألك: هل تحترم المتنبي على المستوى القيمي والشخصي؟

فإنني موقن أنك لن تتردد أو تفكر كثيرًا في استحضار الجواب المطلوب الذي يقر الحقيقة، لأن المتنبي شخص لا يستحق الاحترام، لقد كانت قضية حياته التي يسعى وراءها هي المال، لقد كان يجاهد ويجد في نفاق الملوك والأمراء، حتى يحظى بعطائهم وسلطانهم ورضاهم، فيا سعده من أعطاه ويا ويله من جافاه!

فرق كبير حينما نتأمل حياة الأستاذ العقاد، وحياة العميد طه حسين، فالعقاد ينال الاحترام الذي يكون الإعجاب عنصرًا من مضامينه، لأنه كان يكتب لقضية وصاحب قضية، فكان يصول ويجول في عالم السياسة، ويبحث عن الحرية والكرامة في الفكر والإنسانية، وحارب الشيوعية، وذم الاستبداد، ونافح عن الإسلام، وصادم ملك البلاد نفسه من أجل قضية وطنية، حتى اتهم بالعيب في الذات الملكية، وسجن ٦ أشهر وتجرع مرارة السجن ودفع

ثمن جرأته وقضيته وإيمانه بها، والتي أثمرت كتابه الفريد عالم السدود والحدود.

أما العميد طه فقد كانت حياته كلها مسخرة للسعي لإثبات ذاته واللهث وراء الظهور والمناصب وإرضاء الزعماء والحكام، ولم تكن له قضية إلا تحقيق المكاسب الشخصية، ومن ثم فهو ينال إعجابك، لكنه لا ينال احترامك.

لقد كان طه يهاجم هذا وذاك لا من أجل قضية، وإنما من أجل خالف تعرف، وكثيرًا ما ندم على ما اقترف وجنته يداه من مواقف سلبية كثيرة ضد شيوخه ومعلميه في صدر شبابه.

ربما يقول أحدهم: إن طه كانت له قضية، وهي حرب الإسلام والتشكيك في المعتقدات والثوابت، لكني أقول لك: حتى هذه القضية لم تكن إلا وسيلة تقوده للمكانة والمناصب، وكسب رضاء الحاكمين، وهي الغاية التي كان يعيش من أجلها.

ومن هنا فإن طه ينال الإعجاب كعبقري وأديب ومبدع وروائي ومفكر، لكنه أبدًا لا ينال احترامك.

هل وعيت أيها الكاتب وأيتها الكاتبة ما أرمي إليه وأتحدث عنه؟!

بون شاسع بين قاص يشحذ روايته بالمشاهد المثيرة والأخاذة المشوقة حتى يجذب الجمهور، وبين روائي يسلط روايته نحو القيم تنصرها وتشد من أزرها، وهنا ينال الأول إعجابك بينما ينال الثاني احترامك.

كان هناك عملاقان في دنيا الصحافة المصرية، أمير الصحافة محمد التابعي، والأستاذ هيكل، فالأول كان صاحب قضية، وكل كتاباته وطنية شق طريقه في دنيا الصحافة بالجهاد والمعاناة، نصرة الشعب وقضايا الوطن، ومهاجمة الوزراء والملك نفسه من أجل مصلحة الأمة، حتى سمي أمير الصحافة العربية، أما هيكل فما تسيد على دنيا الصحافة إلا بالسلطان وصداقته لجمال عبد الناصر، وعاش طوال حياته حتى آخر نفس فيها، ينافق، ولا يواجه ولا يصارح ولا ينصر الحق أو ينتصر لحرية الوطن، فقد كان قلمه نصيرًا للسلطان، يسبح بحمد الحاكم، بل يعتقد أن جنون عبد الناصر وحالة النرجسية واعتزازه بنفسه، إنما يرجع لهيكل، وما بثه فيه من هذه الروح الشاذة، التي خيلت له أنه ملهم وإله ولا مثيل له.

فرق كبير بين المناضل محمد التابعي، وبين نضال هيكل في نصرة البغي والطغيان.

ينقل الشيخ علي الطنطاوي في مذكراته عن معروف الأرناؤوط قوله: "وكان الرؤساء يدعون أصحاب الصحف، فيوزعون عليهم مبالغ من المال،

ليكتبوا لهم ما يريدون أو يريد أسيادهم المنتدبون، فاستقل معروف مرة المبلغ، وجعل يساوم يطلب أكثر منه، فقال له الرئيس: ما هذا هل هي قضية بيع وشراء؟ قال له: نعم إننا نبيعك ضمائرنا"

ويقول العلامة حسين مؤنس: "الكتابة الصادقة جهاد، لأنها دائما قضية، والكاتب الجدير يحمل أمانة القلم، مجاهد لأن له قضية، قضية الإنسانية والحرية وكرامة البشر"

وهنا لابد أن أختم لك بكلمات تجعلها نبراسًا في حياتك، وهي كلمات كتبها سيدنا البهي الخولي رحمه الله يقول فيها: "ليكن همك الأول من قلمك، أن تنقر به على قلب ليستيقظ، وتنفس منه في نفس لتهب وتنهض... واذكر دوما أنك قائد، وأنك طبيب واذكر دائما أن مهمتك الكبرى هي إحياء الضمائر وإثارة الهمم إلى المثل العليا"

* * * *

الكاتب والمرأة

كان من ولع الشيخ الأديب علي الطنطاوي بمجلة الرسالة التي كان من كتابها، أن قالت له زوجته يوما: إني لا ضرة لي، ولكن هذه الرسالة ضرتي. ثم رأت وهي أعقل النساء وأفضلهن أنها ضرة لا تنفع ولا تضر.

إن تاريخ الثقافة والأدب لن ينسى أبدًا (عطية الله إبراهيم) زوج نجيب محفوظ، تلك المرأة التي أدركت بقوة موهبة زوجها ونبوغه، فعملت على خدمة هذه الموهبة، وتوفير الأجواء التي تنمو فيها وتتجذر، حتى أتت أكلها وأثمرت بقوة، كانت تثق فيه كثيرًا، وتدرك أنه سينال ما ناله في يوم من الأيام، أما هو فقال عنها: إنه إذا كان لأحد فضل عليّ بعد الله تعالى فيما وصلت إليه، فهي زوجتي التي كانت بالفعل عطية الله إلي.. لقد فهمت طبيعة حياتي وتقبلتها، وحرصت على توفير الأجواء التي تمكنني من الكتابة، وحاولت بكل طاقتها أن تبعدني عن كل ما يعطلني أو يشغل فكري.. فكانت حقًا كما قيل وراء كل عظيم امرأة.

أما أنت أيتها الجميلة، التي تطمحين من وراء الزواج، أن تمرحي وتلهي وتجوبي العالم، وتريدين من زوجك أن يسخر حياته لمرحك وزينتك وملابسك وجمالك ودلالك ورشاقتك ونضارتك وكوافيرك، فنصيحتي إليك أن تحذري كل الحذر، أن تقتربي من زوج موهوب أو أديب أو مفكر،

لديه مشروع فكري يسيطر على عقله وهواه، لأنك لن تكوني سعيدة، ولن تنالي ما تطمحين إليه، ومعنى أن تقبلي بمثله، فليكن في اعتقادك أن هناك ضرة أو ضرات كثيرات يشاركنك في الحياة معه، فمكتبته ضرتك الأولى، وقلمه وأوراقه ضرتك الثانية، وكتبه التي ينتجها أعز عليه من أبنائك منه.

زوجة سيبويه، وزوجة ستيفن كينج

كثير من أفكار سيبويه وعلمه ضاع، ولم يصلنا منه إلا القليل، بسبب أن زوجته التي كانت تعشقه، رأته طيلة الوقت منشغلا بالعلم والتدوين، فانتظرت ذات يوم حتى خرج، وجمعت كل أوراقه وأحرقتها؛ فلما عاد ووجد عصارة فكره بين الرماد أغشى عليه، ولما أفاق طلقها.

الكاتب الأمريكي الشهير ستيفن كينج، أحد أبرز مؤسسي أدب الرعب في العالم حتى لقب بـ(بملك الرعب)، فشل في التعاقد مع دار طباعة لنشر كتابه الأول، فقرر أن يرميه في القمامة، غير أن زوجه التي كانت تختلف عن زوج سيبويه، استخرجت الورق وجمعته وأعادت ترتيبه، وذهبت به إلى دار نشر وافقت على طبع الكتاب، ومن ثم توالت الأعمال.

واليوم تُحقق كتب ستيفن كينج أعلى نسبة مبيعات في العالم، حيث طبعت كتبه ٣٥٠ مليون نسخة، بخلاف أعماله التي تحولت إلى أشهر أفلام الرعب.

لقد وجد سلامة موسى عقب زواجه، صعوبات كبيرة، أولها أنه محترف للأدب والصحافة ومتعلق بالقراءة ويهوى الثقافة، بينما زوجته ترى الإنفاق على الكتب إسرافًا وتبديدًا، ولا تطيق رؤية زوجها غارقا في كتابه طوال الوقت.

لكنه يقول: وجدت أنه للتغلب على هذه العلة، وهي أن أشركها فيما أكتب وأناقشها في جميع الموضوعات الثقافية التي أهتم بها، واضطرت هي لمتابعة نشاطي، لأن كل زوجة مهتمة بمهنة زوجها حتى ارتفع مستواها كثيرًا عما سبق.

ربما نجح (سلامة موسى) في محاولاته مع زوجه التي كانت لا تهوى الكتب، ولا تميل إلى القراءة، حتى استطاع أن يجعل منها قارئة مثقفة تناقشه ويناقشها، فيما يعن له من شؤون المعرفة، لكن كان هناك غيرهُ من المثقفين والكتاب الكبار، من كان لا يعبأ بالزوجة في ثقافتها أو فهمها ووعيها، ويكفيه منها أن تقوم بخدمة البيت وشؤونه والأولاد وتربيتهم.

ولعل هذا كان الحال الأغلب لكثير من أدبائنا الكبار، إن لم يكن جلهم.

وإذا كنا نعرض لضيق الرجل من حال الزوج في انصرافها عما يهوى، فهناك زوجات ضقن ذرعًا من الكتب ورفوفها، ورأين فيها ضرة عنيدة

تنغص عليهن عيشهن، وتسرق الزوج من بين أحضانهن، وربما تقضي حياتها في غضب ونكد وشقاق، إلى أن يغلبها القدر فتستسلم له، وهذا تمامًا ما حدث لزوج المفكر الكبير الأستاذ (أحمد أمين) صاحب ضُحى الإسلام وزعماء الإصلاح، حيث اقترنا في بداية زواجهما، يتعرف كلاهما على أخلاق صاحبه، ويتكشف أحدهما طباع الآخر، ورغم أن ثقافة هذه الزوج كانت محدودة، إلا أن (أمين) كان مسرفًا في هيامه بكتبه وقلمه، التي يقضي معها أغلب الوقت غافلا أن له قرينة تعيش معه، ولها كثير من الحقوق، وعلى رأسها هذا الوقت الذي يمنح أغلبه للبحث والتأليف. حتى جاء يوم الصاعقة، ذلك اليوم الذي انفجرت فيه الزوج، ولم تتحمل هذا الغلو الثقافي الفاحش، فخرجت عن مشاعرها غاضبة!

حينما أعدت العشاء، وفتحت الباب لتخبره بأنه قد تم إعداده، لكن صاحبنا لم يكن يدري بما حوله، ولم يسمع النداء أو يفطن لفتح الباب، لأنه كان غارقًا في ترجمة بعض الجمل الفلسفية، فلم تُطق الزوجة صبرًا، فكان خصامها ونزاعها وشكواها إلى أهلها، ولكن رغم هذه الحادثة التي غضبت فيها غضبًا عارمًا، لم تستطع أن تغير من أخلاق زوجها وطباعه، حتى استسلمت في النهاية للأمر الواقع، ورضيت أن تعيش مع هذا الراهب عيشة شبه معزولة، تقوم برسالتها في خدمته وتربية أبنائه.

ولا شك أن هذه الزوجة العظيمة، كانت نظرتها للكتب نظرة المُبغضات الكارهات، لكنها في نفس الوقت، نستطيع أن نقر ونقول: إنها ساهمت رغم هذا البغض في خدمة الثقافة والمكتبة العربية، فقد أنجب أحمد أمين عشرة من الأبناء، مات اثنان وبقي ثمانية، استطاعت هذه المرأة أن تقف بجواره في تربية هؤلاء الأبناء الكُثر، حتى أنه ومن تابع حاله كان يتعجب: كيف استطاع أن يؤلف ما ألف، ويكتب ما كتب، ويقرأ ما قرأ، مع ما تتطلبه تربية الأبناء من مسؤولية شاقة، وجهود لا تنتهي؟!

لكننا لا شك الآن، نعرف السبب الذي يُبطل به هذا العجب، والذي يتمثل في هذه الزوجة العظيمة الكريمة، التي حملت عنه الأعباء، وتركته معزولًا في عالمه أغلب وقته، يُسامر كتبه وأوراقه، واكتفت بإشرافه على التربية العلمية والسلوكية لأولاده.

إن كثيرًا من الكتاب يعترفون بفضل المرأة عليهم، ودورها في حياتهم وإنتاجهم وإنجازهم وإبداعهم، وكان بعضهم يختصر الطريق ويهدي بعض كتبه لزوجته، لكن الدكتور أحمد شلبي رحمه الله، أبى إلا أن يُفرد عنها حديثا خاصًا في كتابه الفريد سيرة حياتي.

لقد لعبت السيدة كريمة إمام في حياة الدكتور أحمد شلبي دورًا ثقافيًا كبيرًا، وكان لها الفضل العظيم في مساعدته في إنجازاته العلمية، التي لاقت

القبول والانتشار بين عموم الأمة من طلاب وباحثين، يقول عنها: إن زوجتي تبذل أقصى الجهد لتعاونني فيما ارتبطت به من أعمال، لقد هالها أن يكون زوجها كاتبًا ومؤرخًا ناجحًا إلى حد معقول، فراحت تصب نفسها في لمساعدتي ما وسعتها الحيلة، حتى يمكن القول بصدق ودقة إنه لولا جهدها لما وصلت إلى ما وصلت إليه على الأقل من ناحية الكم.

لقد كانت تعمل بالمدارس القومية يوم أن قدر لنا الزواج، وكنت أسمعها تتحدث عن تلاميذها بحنان وإعجاب، وكانت تقص علي أحداث يومها وحياة زميلاتها، وأدرك من قصصها شدة ارتباطها بعملها، ولذلك ترددت طويلا قبل أن أطلب منها أن تتفرغ لي وتدع عملها، ولكن استجابتها لي كانت أسرع مما توقعت، وقالت وهي توافق: إنني بذلك سأشاركك في أعمالك الكبيرة ودراساتك العلمية والجامعية، فكأنك تنقلني من العمل بهذه المدارس إلى حياة أرفع وأعلى، وشكرتها وبدأنا حياة أسرية متعاونة خصبة.

كنت أملي عليها أكثر ما أكتب منذ ذلك الحين وكانت تعد لي المراجع، واضطلعت بتصحيح تجارب المطابع، فكنت أقرأ التجارب مرة واحدة للتحقيق العلمي، أما ما عدا التحقيق العلمي من مشكلات فقد تركته لها، وأجادت حمل مسؤوليته، وكنت أكتب للتليفزيون والإذاعة والمجلات والصحف كتابة سريعة بقلم الرصاص، ولا أراه بعد ذلك إلا منسقا مرتبا بأجمل خط وأدق نظام.

وقامت بدور السكرتيرة خير قيام، وإن كانت لا تحب هذا اللقب، ولا أحبه لها، فهي تتلقى المحادثات التلفونية وتأخذ مذكرة بها، وتتصرف بلباقة حولها.

وخطاباتي الكثيرة التي ألتزم بكتابتها إلى المادحين أو الناقدين أو الناشرين، أمليها بسرعة خاطفة لأجدها بعد حين منسقة معدة للإرسال، وما علي إلا أن أوقع في نهايتها، وحتى هذا التوقيع أجادته، فأصبحت تقوم به، ولم أخش ذلك، إذ ليست لي ثروة ذات بال أخاف أن تتصرف فيها بما يخالف رغبتي، وطالما استشرتها في بعض المواقف العلمية أو الفكرية، فأبديت رأيًا حصيفًا أخذت به، وطالما قرأت لها ما كتبت أو قرأته هي، فاقترحت تعديلا ذات بال فاتبعت رأيها، وهناك حقيقة يتحتم إبرازها وهي أنها تحب هذا العمل، فهي لا تؤديه كواجب وإنما كرغبة، ولا أذكر أنها ضجرت منه يومًا أو تكاسلت عنه، وفي كثير من الأحايين، أكون مشغولا بمشكلة علمية تؤرقني وتقض مضجعي، وأحيانًا أوقظها أو تتيقظ هي عندما أضيء الأنوار لأدون هذه الفكرة، وتكتب عني ما أريد بدقة وحنان، وهي تقول: أملِ ما تريد لعلك تستريح بعد ذلك فتنام.

كانت هذه بعض المشاهد من عناء هذه الزوجة، التي ناضلت مع زوجها، حتى ينال الصدارة التي يرجوها من طريق كفاحه، لقد اندمجت مع

مواهب زوجها وطموحه، وصار نجاحه نجاحها، إنها الزوجة الوفية التي لم يكن لها طموح إلا أن تعيش في عالم زوجها وتملأ كيانه وأفكاره، وإذا أصرت بعض النساء أن يتمردن على هذه الطبيعة ويرفضن هذه الرؤية، فإن الإنصاف يقتضينا أن نسجل الامتنان لزوجة رأت أن سعادتها ونجاحها في نجاح زوجها وسعادته، وذلك لا يُعد من قبيل العيب والظلم في شيء، فذلك الدور من أوجب واجبات المرأة، وليست كل النساء على شاكلة واحدة، والسعيد من الكتّاب من رزق بمثل السيدة كريمة إمام.

* * * *

حاربوا أدباء الجنس

ظهرت اليوم حفنة ممن يزعمون أنهم أدباء ومثقفون، راحوا يكتبون في مناحي العُري والجنس وشهوات الجسد، والانحدار الأخلاقي، والدعارة والعربدة، وأخذوا ينشرون وينسبون ويلصقون كتاباتهم بالأدب وفنونه.

والمصيبة أنهم يتخيلون أنفسهم عباقرة مبهرون، وكلما كان الكاتب منهم أو الكاتبة، منحطًا في ألفاظه، ساقطًا في وصفه وتصويراته، مثيرًا في عباراته وتحليلاته، كلما كان فلتة زمانه، وعبقري عصره وأوانه، وأكثر تشويقًا وإثارة وإبهارًا.

وبعضهم يفعل هذا، لا لأنه باب من أبواب الأدب مغمورًا، يعمل على طرقه وإحيائه كما يدعي، وإنما يكتبون هذه الكتابات الهابطة المنحلة، كنوع من التسويق لأقلامهم الداعرة الفاجرة، لأنهم كتبوا في الممنوع من الشهوات التي تجري وراءها كثير من العقول، التي ينبت تفكيرها من فروجها.

انظر اليوم لهذه الفاجعة في جماهير الأدباء والمثقفين من الأجيال الصاعدة، والكتاب المبتدئين في عالم الأدب، انظر إليهم وهم يلهثون وراء كاتب يكتب قصصًا وروايات سافلة منحطة، ويُجسد فيها ملاحم جنسية مُسفة، وبدلا من أن يسبه الأدباء ويمقته الناشئون، ويتبرؤون من كتاباته،

تراهم يعظمونه ويسيرون خلفه ويتخذونه قدوة، ويكبرون قامته، وما هو إلا ساقط مريض.

وهذا التصور لا شك يرجع في أساسه إلى الهبوط الأخلاقي والانحدار القيمي، والخلل السحيق في الذائقة الأدبية.

وأفجع من هذا أن تجد امرأة، بارعة في الكتابة الجنسية، والتصويرات الحميمية بين الرجل والمرأة، وتتباهى بنشر هذا العُري الداعر والأدب المنحل على أعين القراء، بلا خجل أو وازع من دين أو ضمير أو قيم.

لقد رأيت لإحداهن كلامًا ساقطا، تتباهي به وهي تكتب عن الفروج، والعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، ثم رأيتها تصب جام غضبها على كل من ينتقد ويرد على كتاباتها الشهوانية، بدعوى حراسة الفضيلة وحفظ القيم، متهمة إياه بأنه في حقيقته ذئب نجس، يود لو يزني بكل نساء الأرض، وحاولت أن تصور للقراء، أنه يُخفي وراءه سعارًا جنسيًا ساحقًا، لو أتيح له التعبير عن حاله، لرأينا أبشع ما نري من أصحاب الشهوات.

وأنا أتعجب وأتساءل: من منا لا توارده خواطر الجنس، وأطروحات الشهوة؟ فهل مع هذا أن نبيح لأنفسنا أن نمارس الفاحشة علنًا، ونتحرش بالنساء في الشوارع، بدعوى حرية الإبداع والتعبير عن متطلبات الجسد؟

هذه الحرية التي يرونها تظلم في كل جانب، ولا يبادرون بنصرتها إلا في هذا الجانب، الذي ما يجب أبدًا أن تُنصر فيه، وإنما تحكم بسياج الأدب والعرف والأصول والدين.

الحق أن مسألة الحرية وضرورة التعبير عن متطلبات الجسد التي يدعونها، ماهي إلا غطاء يوارون به أمراضهم النفسية، وولعهم الجنسي، وهوسهم الشهواني، حتى من يقرؤون هذه النوعية من الكتابات، ولا يستهوون غيرها، يعانون نفس المعاناة، وقد رأيت تجارب كثيرة في الحياة، من هذه النوعية التي تبهر ويتفتق وجدانها بمثل هذه الكتابات الجنسية، التي يخفون رواياتها عن الأعين ويقرؤونها بين الحين والحين، ويشعرون أنها تمدهم، بشحنات روحية تبهج نفوسهم، وتمنحها النشوة والسرور.

إن الخلاء وقضاء الحاجة في الحمامات، من متطلبات الجسد، فهل يمكن لنا كأدباء أن نذهب فنصف حالة الإخراج وطبيعة القذى الذي يودع مؤخراتنا؟

ليس كل ما يحدث يكتب، وإذا كان وصف الخلاء ينافي الذوق، وتعافه نفس الإنسان، فإن الجنس ووصف علاقاته بهذه الصورة الفجة، أمر تجافيه الأخلاق وتنفر منه طبائع الأسوياء.

إن هـؤلاء الـذين يكتبـون في الأدب السـافل والتعبـير الـداعر، لا يحترمون أقلامهم، ولا يعرفـون أن للقلـم رسـالة، يجـب أن ينـهض بهـا ويقـيم معالمها بين الناس.

هـؤلاء الكتـاب نبتـة خبيثـة في عـالم الأدب، يجـب اجتثـاث تيـارهم والتصدي له، حتى لا ينمو ويكون له أنصـار يشـيعون الفاحشـة بـين النـاس، ويحولـون مسـار الأدب الحقيقـي بأصـالته ويفاعتـه وإشراقـه، إلى السـقوط والهاوية.

بل إنني أرجع شهرة أدباء الجنس في مجتمعاتنـا، إلى السـطحية الموغلـة في الوعي والتفكير والتذوق.

يا قومنا إنها أزمة أخلاق في المقـام الأول، وليسـت أبـدًا أزمـة وعـي أو تفكـير، وقـد صـدق العقـاد حـينما وصـف هـؤلاء بـأنهم يفتقـدون العقيـدة الروحيـة، التي لـو كانـت موجـودة وقويـة، لأنفـت مـن ذكـر هـذه الشـهوات السافلة وإشارات الجنس الساقطة.

إن للقلم رسالة، والكاتب النبيـل الشـهم لا يلطـخ قلمـه، بهـذا العـار، وذاك الهوان.

إن تصوير الفاحشة وتجسيد العري والإباحية والعلاقات الجنسية على الملأ في زي الأدب، خيانة للأدب قبل أن تكون استهتارًا بالشرف والفضيلة.

جاءني أحدهم يوما يقول لي: إن أديبًا كتب في روايته: (إن سحر الدنيا كله في نهود النساء) فقلت له: إن الرجل يُعبر عن شهوة محمومة تؤرق جسده، وطاقة مكبوتة يُريد إطلاقها، وليس هناك جمال في تصوير الشهوة على هذا النحو إلا جمال يستهوي الفجرة والفساق.

* * * *

أيها الموهوب، الرافعي ينصحك

هذا نحن نواصل نصائحنا لك أيها الموهوب في دنيا الكتابة، ونحاول من خلالها أن نجيبك على هذا السؤال المؤرق الذي تذكرنا به بين الحين والحين، فتقول: كيف أكون كاتبا وأديبا؟

وفي هذا الميدان لا يفوتنا ذكر هذه الرائعة، رائعة الرافعي، ذلك الأديب العملاق الذي نشأ نشأة علمية، إذ حفظ القرآن وهو دون العاشرة، ثم أخذ عن أبيه علمًا كثيرًا في الفقه والحديث والأصول وغيرها من العلوم الدينية، ولم يكتف بما حصل عن أبيه شفاهًا، بل عكف على مكتبته يعب من نهرها المتدفق ما وسعه ذلك، ثم أدمن النظر كذلك في مكتبة (الشيخ القصبي) ومكتبة (الجامع الأحمدي) في طنطا، وكانت له جولات مع كتب الحديث والأدب شعرًا ونثرًا، حتى لقد حفظ كتاب نهج البلاغة (للإمام علي بن أبي طالب) وهو دون العشرين، حفظه في القطار بين طنطا وطلخا ذاهبًا إلى وظيفته وآيبًا منها.

ومن خلال هذه البنية الثقافية نستطيع أن نتلمس المؤثرات في أسلوبه ولغته كما رصدها بعض الكتاب، فأول ذلك كتاب الله عز وجل وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأدل شيء على تأثير لغة الكتاب العزيز والحديث الشريف على لغته ما ذكره كاتب في مجلة أمريكية من أن الرافعي لو

ترك (الجملة القرآنية) والحديث الشريف ونزع إلى غيرهما لكان ذلك أجدى عليه ولملأ الدهر، وكانت قراءاته الغزيرة في كتب (الجاحظ) و(ابن المقفع) و(أبي الفرج) وغيرهم، وكان يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة.

لم يقرأ الرافعي كتب التراث فقط وإنما حفظ منها ما وسعه حفظه، فغَيْر حفظه لنهج البلاغة حفظ فصولا من كتاب المخصص لـ (ابن سيده)، وقد قال ابن خلدون -رحمه الله-: «وعلى قدر جودة المحفوظ، وطبقته في جنسه، وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ.. ثم تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما... لأن الطبع إنما ينسج على منوالها»

ولكن ما هي رائعة الرافعي التي نورد ذكرها للقراء، ولكل من أراد أن يكون كاتبا وأديبا؟ من أولئك الموهوبين الذين يريدون أن ينالوا رتبة في دنيا الكتابة؟

إنها تلك الرسالة التي كتبها لصديقه (أبي رية) يقول فيها:

"يا أبا رية، السلام عليكم، وقد كنت مريضًا وسافرت إلى مصر، لقد تخيلتَ كثيرًا في الوصية التي تطلبها وما أشبهك برجل لا يصلي ولا يصوم ولا يؤتي الزكاة ولا يحج ثم يريد أن يخرج كفارة تسقط عنه كل ذلك ويبقى وادعًا مستريحًا وله ثواب الصائم المصلي بدريهمات معدودة.

الإنشاء لا تكون القوة فيه إلا عن تعب طويل في الدرس وممارسة الكتابة والتقلب في مناحيها والبصر بأوضاع اللغة وهذا عمل كان المرحوم الشيخ عبده يقدر أنه لا يتم للإنسان في أقل من عشرين سنة.

فالكاتب لا يبلغ أن يكون كاتبًا حتى يقطع هذا العمر في الدرس وطلب الكتابة، فإذا أوصيتك أن تكثر من قراءة القرآن ومراجعة الكشاف (تفسير الزمخشري). ثم إدمان النظر في كتاب من كتب كالبخاري أو غيره ثم النفَس في قراءة آثار ابن المقفع (كليلة ودمنة، واليتيمة، والأدب الصغير).. ثم رسائل الجاحظ، وكتاب البخلاء، ثم نهج البلاغة، ثم إطالة النظر في كتاب الصناعتين للعسكري، والمثل السائر لابن الأثير، ثم الإكثار من مراجعة أساس البلاغة للزمخشري. فإن نالت يدك مع ذلك كتاب الأغاني أو أجزاء منه والعقد الفريد، وتاريخ الطبري فقد تمت لك كتب الأسلوب البليغ.

اقرأ القطعة من الكلام مرارًا كثيرة ثم تدبرها وقلِّب تراكيبها ثم احذف منها عبارة أو كلمة وضع من عندك ما يسد سدها ولا يقصّر عنها واجتهد في ذلك، فإن استقام لك الأمر فَترقَّ إلى درجة أخرى.

وهي أن تعارض القطعة نفسها بقطعة تكتبها في معناها وبمثل أسلوبها فإن جاءت قطعتك ضعيفة فخذ في غيرها ثم غيرها حتى تأتي قريبًا من الأصل أو مثله.

اجعل لك كل يوم درسًا أو درسين على هذا النحو، فتقرأ أولا في كتاب بليغ نحو نصف ساعة ثم قطعة منه فتقرؤها حتى تقتلها قراءة، ثم تأخذ في معارضتها على الوجه الذي تقدم (تغيير العبارة أولا ثم معارضة القطعة كلها ثانيًا)، واقطع سائر اليوم في القراءة والمراجعة. ومتى شعرت بتعب فدع القراءة أو العمل حتى تستجم ثم ارجع إلى عملك ولا تهمل جانب الفكر والتصور وحسن التخيل.

هذه هي الطريقة ولا أرى لك خيرًا منها، وإذا رزقت التوفيق فربما بلغت مبلغًا في سنة واحدة.

وأول رأيك أن تستفيد ** وآخر رأيك أن تجتهد

هذا بيت عرض لي فربما كان خلاصة الوصية، وفي الختام أرجو أن توفق فيما تحاول والسلام."

فهل لديك طاقة أيها الموهوب بمثل هذا؟ نعم إنها طريق شاقة متعبة وليست سهلة، لكني أعرف شيئا مهما جدًا، وهو أن طولها لن يكون عائقًا لك أو باعثًا لإحباطك، وإنما هو طريق تجد فيها اللذة والمتعة، وكلما أوغلت فيها كلما أدمنت ميدانها وطرقها وسبلها ووسائلها، ثم تُفاجئك همة عظيمة تُشعل قلبك بالحماس العظيم، حينما تجد قلمك يتطور ويستجيب لهذه الدروس العنيفة، التي منيت نفسك بها وأغرقت وقتك في عالمها.

ويقول الرافعي مجيبًا في موطن آخر:

" ثمّ عليكَ بحفظِ الكثيرِ من ألفاظِ كتابِ "نُجعةِ الرائدِ" لليازجي والألفاظِ الكتابيّةِ للهمذانيّ، وبالمطالعةِ في كتابِ "يتيمةِ الدهرِ" للثعالبيّ، والعقدِ الفريدِ لابن عبدربه، وكتابِ "زهرِ الآدابِ" الذي بهامشهِ.

وأشيرُ عليكَ بمجلّتينِ تُعنى بقراءتهما كل العنايةِ "المقتطف والبيان"، وحسبكَ "الجريدةُ" من الصحفِ اليومية و"الصاعقة" من الأسبوعية، ثم حسبكَ ما أشرتُ عليكَ بهِ فإنّ فيهِ البلاغ كلّهُ، ولا تنسَ شرحَ ديوانِ الحماسةِ وكتابَ نهجِ البلاغةِ فاحفظْ منهما كثيرًا.

ورأسُ هذا الأمرِ بل سرُّ النجاحِ فيهِ أن تكونَ صبورًا، وأن تعرفَ أن ما يستطيعهُ الرجلُ لا يستطيعهُ الطفلُ إلا متى صارَ رجلًا، وبعبارةٍ صريحةٍ إلا من انتظرَ سنواتٍ كثيرة.

* * * *

الفهرس

الإسم **رقم الصفحة**

- ❖ المقدمة ٧
- ❖ اكتب ما تحب ٩
- ❖ لكي تكون كاتبًا ١٥
- ❖ عشاق القلم ٢٢
- ❖ الكتابة تعب وكفاح ٢٩
- ❖ الانتحار المُبكر ٣٥
- ❖ ما عليك فقط إلا أن تبدأ ٤٢
- ❖ أيها الكاتب تأكد وتمحص ٥٠
- ❖ كُتّاب مجانين صحيح ٥٦
- ❖ لا تُضحك القراء عليك ٦٢
- ❖ حراب الندم ٧١
- ❖ خديعة القلم ٧٧
- ❖ الأقلام المُلثمة ٨٣
- ❖ الأقلام حينما تنافق وتناقض ٨٨
- ❖ الكاتب بين التدوير والتسويق ٩٣

الإسم **رقم الصفحة**

- أخطاء اللغة لا تلغي إبداعك ٩٩
- أقلام إلى زوال ١٠٣
- من أسعد اللحظات ١٠٩
- مولد الصواعق ١١١
- سيعرفون قيمتك يومًا ١١٨
- بواعث الإحباط ١٢٣
- الغيرة تصنع العجائب ١٢٨
- بين النقد والتحطيم ١٣٣
- الأقلام البائسة ١٤٠
- على خطى العباقرة ١٤٥
- الشواشي العليا للبرجوازية ١٤٩
- لماذا يسرقون؟ ١٥٧
- كتب يعتز بها أصحابها ١٦١
- المقالات المجمعة ١٦٤
- كيف كانت البداية؟ ١٦٨

الإسم **رقم الصفحة**

- قمة المجد الأدبي ١٧٤
- إنك تساوي رئيس الجمهورية ١٨١
- لا تنس أبدًا أنك إنسان ١٨٦
- ضياع الإبداع ١٩٣
- إن جسدي يقشعر ٢٠٠
- علموا كُتّابكم القضية ٢٠٦
- الكاتب والمرأة ٢١١
- حاربوا أدباء الجنس ٢١٩
- أيها الموهوب الرافعي ينصحك ٢٢٤

* * * *

تم بحمدالله